الزهراء (عليها السلام)

اهداف. مواقف. نتائج

شهيد المحراب
آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم (قده)

الزهـــراء ﷺ

أهداف.. مواقف.. نتائج

الزهـــراء عليها السلام

اهداف.. مواقف.. نتائج

شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

هوية الكتاب

أسم الكتاب: الزهراء عليها السلام.أهداف.. مواقف.. نتائج

الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره.

المطبعة: العترة الطاهرة

الطبعة الأولى: ٥٠٠٠ نسخة

حقوق الطبع محفوظة

لمؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

النجف الأشرف

شتاء سنة ٢٠٠٦ م

شبكة كتب الشيعة

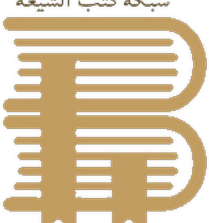

shiabooks.net

mktba.net رابط بديل

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤسسة

الحديث عن الزهراء عليها السلام يمثلُ حديثاً عن النبوة والنبي في آن واحد... فهي الكائن الذي انفصل من جسد الرسالة، وتمثلها روحاً وفكراً وسلوكاً، ولشدة التداخل بين الصورتين كان يصفها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بـ (روحي التي بين جنبي) لقد ولدت الزهراء عليها السلام ودرجت في ذلك البيت المقدس، الذي كان - بحق - مدرسة لكل الأجيال، وسيظل كذلك إلى يوم القيامة؛ لأن ما فيه من قول أو فعل أصبح سنة متبعة، وآية تهدي الناس إلى طريق الحق والعدل...

كما شهدت عليها السلام منذ سنيها الأولى نشوء الإسلام وازدهاره، وعاشت الساعات العصيبة لرسول السماء، حينما ضيّق عليه المشركون الحصار، ظنا منهم بأن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله سينصرف عن الإسلام، وأيضا شهدت سيدتنا الزهراء عليها السلام عزّ الإسلام وانتصاره، ودخول المسلمين في دين الله أفواجا، يوم الفتح العظيم.

وفي كل هذه المراحل كان الرسول العظيم صلى الله عليه وآله يوليها أهمية خاصة في إطار الاحترام والإكبار، وليس ذلك اعتباطا، أو بسبب ما تستدعيه عواطف الأبوة، بل أراد أن يشير إلى أهمية تلك الشخصية العظيمة في نظر السماء، وما سيترتب عليها من دور خطير في الرسالة بعد الرسول صلى الله عليه وآله حيث أراد أن يلفت نظر المسلمين إلى سلامة الخط الذي سوف تنتهجه سيدة النساء، ودورها في مجرى الأحداث عند أفول عصر النبوة.. وحين تصديها لما يتعرض له المسلمون من عواصف الفتن..

وليس كثيرا على الزهراء عليها السلام ذلك، وهي الكوثر الذي حباه الله إلى

الرسول الكريم ﷺ كما أنها تشكل القطب الذي يلتقي فيه نور النبوة والإمامة، بالإضافة إلى أنها معصومة في القول والفعل، حتى أن الرسول العظيم ﷺ حدد معالمها بقوله: ((رضا فاطمة رضاي وغضبها غضبي)).

الزهراء عليها السلام لم يكن دروها كما يصورها البعض عنوانا للمظلومية بجانبها السلبي، تستدر الدموع فقط، بل كانت موقفا، وصرخة احتجاج، دوت في وجه الظلم والظالمين.

وقد وقفت الزهراء عليها السلام إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام حينما ابتعد عنه الصديق، وخذله الناصر، كما رسمت للمرأة المسلمة، طبيعة الدور الشرعي الذي يجب أن تسير عليه..

لقد تمكن سيدنا شهيد المحراب رحمه الله من إعطاء صورة واضحة للدور الذي نهضت به سيدة النساء، من خلال كمّ كبير من محاضراته القيمة في ملتقاه الأسبوعي وغيره، كما قام بتحليل التركيبة الاجتماعية لمجتمع قريش، على ضوء بُعد القوم وقربهم من الإسلام، كما أجاب - من خلال تقديمه لسيدة بيت النبوة - على مختلف التساؤلات التي تعتلج في النفس الإنسانية، فقدّم رحمه الله الصورة الطبيعية الرائعة، والمنزلة الرفيعة التي تستحقها تلك القدسية المطهرة...

ونظرا لأهمية الموضوع بذلت دائرة التأليف والتحقيق في مؤسسة تراث الشهيد الحكيم رحمه الله جهوداً كبيرة، من خلال تدوين وإعداد كل ما تحدث به الشهيد الحكيم بهذا الخصوص وإخراجه إلى النور، وقد كانت للسيد مرتضى نعيم الموسوي جهود واضحة في هذا المجال.

هذا وقد قامت مؤسسة شهيد المحراب للتبليغ الإسلامي مشكورة بإعداد جزء من هذه المحاضرات وإخراجها في كتاب (فاطمة الزهراء).

نسأل الله تعالى أن يكون عملنا هذا حسنة مضاعفة في ميزان أعمال شهيد المحراب آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره ويكون ذخرا لكل الجهود التي بذلت في إخراج هذا الكتاب في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

مؤسسة شهيد المحراب الحكيم

المدخل

ورد في الحديث الشريف ضمن روايات عديدة عن أهل البيت عليهم السلام: إن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، والكون كله من أجل محمد وآل محمد[١].

وهنا قد يطرح التساؤل التالي: كيف يمكن تصوّر أن كل هذا الكون خُلق من أجل هذه الجماعة الصالحة؟ وما معنى خلق الكون كله، بما فيه خلق الإنسان - الصالح والطالح - منذ آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة من أجل هذه الجماعة المحدودة الصغيرة؟

إذا تأملنا هذه الروايات، يمكن أن نفهم معنى خلق الكون من أجل هذه الجماعة، ويمكن - أيضاً - استنباط ذلك من القرآن الكريم نفسه، حيث أكد في آيات عديدة، أن الله سبحانه وتعالى سخّر ما في السماوات والأرض للإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

وفي آيات أُخرى يؤكد القرآن الكريم، أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الإنسان من أجل عبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣]

وإذا جمعنا آية التسخير وأمثالها، مع هذه الآية الشريفة نستنتج أن الله سبحانه وتعالى، خلق الكون - بما فيه الإنسان والجن والملائكة[٤] - لكي

---

(١) تأويل الآيات في فضائل العترة الطاهرة: ١: ٤٣٨، وبحار الأنوار: ٤٠: ٢٠.

(٢) الجاثية: ١٣.

(٣) الذاريات: ٥٦.

(٤) الملائكة مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وشأنهم في العبادة واضح، حيث أنهم يمارسونها دائماً..(المؤلف).

يوجد المخلوق العابد الذي يعبد الله سبحانه وتعالى ويخلص له في عبادته.

وإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة أن أفضل المخلوقين الذين وجدوا أو سوف يوجدون على وجه الأرض ممن يتصفون بهذه الصفة (العبادة) هم محمد ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام، عند ذلك نفهم أن الله سبحانه وتعالى خلق كل هذا الكون والوجود من أجل أن يوجد المثل الأعلى - المخلوق العابد - المتمثل بهذه النخبة الصالحة، وهم أهل البيت عليهم السلام، ومنهم الزهراء عليها السلام، التي تمثل عنصراً مهماً من هذه النخبة الصالحة.

شخصية الزهراء عليها السلام

تمهيد

يمثل أهل البيت عليهم السلام انعطافةً في مجمل حركة الإسلام والأمة، ويمثلون عليهم السلام - أيضاً - أُطروحة في هذه الحركة والرسالة الخاتمة، ولذلك نجد القرآن الكريم أكّد على أهمية هذه الجماعة والأسرة في قوله تعالى: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿...قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾[2]، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تناولها الباحثون[3]، فضلاً عما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله من روايات كثيرة جداً في تعريف أهل البيت عليهم السلام ودورهم، ولعل من أبرز الروايات وأظهرها، ما ورد في حديث الثقلين: ((إني تاركٌ - أو مخلّفٌ - فيكم الثَّقَلَين - أو الثِّقْلَين - ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))[4]، وبعض الروايات تذكر هذا المضمون وتضيف: ((كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض))[5].

وبعض الروايات تتحدث بحديث خاص عن أهل البيت عليهم السلام، رُوِيَت

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الشورى: ٢٣.

(٣) كقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾: آل عمران: ٦١، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾. المائدة: ٥٥

(٤) وسائل الشيعة: ٢٧: ٣٤: ح٩. المعجم الكبير للطبراني: ٥: ١٥٤. وهذا الحديث من الأحاديث المتواترة الذي رووته العامة والخاصة وبصيغ مختلفة، راجع كتاب الغدير: ٣: ٢٩٩.

(٥) مسند أحمد: ٣: ١٤.

عن طرق المسلمين جميعاً، سنةً وشيعة، وفي الكتب المعتبرة لدى الطرفين، حتى ألّف بعض العلماء كتباً في حديث الثقلين[١] يثبت فيها تواتر هذا الحديث، منذ زمن رسول الله ﷺ وحتى يومنا الحاضر.

فمن أين بدأ هذا الموقع لأهل البيت عليهم السلام؟

إنه بدأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[٢] أي من ولادة الزهراء عليها السلام، فولادتها عليها السلام تمثل ولادة أهل البيت عليهم السلام، حيث أن الرسول أبوها، وعلي زوجها، والحسنان ولداها.

ولذلك يمكن أن نعبّر عنها عليها السلام أنها محور أهل البيت عليهم السلام. ومن المعلوم أن أهل البيت عليهم السلام لهم موقع خاص من الناحية العقائدية عند المسلمين جميعاً، وعند أتباع أهل البيت عليهم السلام بالخصوص، باعتبار أن ولاءهم وحبهم إيمان، وبغضهم نفاق وكفر[٣] فهم من هذه الناحية يمثلون جانباً عقائدياً، من جهة أنهم يمثلون الامتداد الطبيعي للرسالة الإلهية الخاتمة، والأطروحة الإلهية المكمّلة لهذه الرسالة في حياتهم وشخصيتهم ووجودهم ومقامهم وإمامتهم، وغير ذلك من الخصائص ذات العلاقة

---

(١) ومن هؤلاء نجم الدين الشريف العسكري صاحب كتاب (محمد ﷺ وحديث الثقلين).

(٢) سورة الكوثر.

(٣) عن أبي عبد الله عليه السلام انه قال: ((أخبر الله نبيه بما يلقى أهل بيت محمد ﷺ وأهل مودتهم وشيعتهم منهم في أيامهم وملكهم (بني أمية)، قال: وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ ونعمة الله محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، حبهم إيمان يدخل الجنة، وبغضهم كفر ونفاق يدخل النار، فأسر رسول الله ﷺ ذلك إلى علي وأهل بيته عليهم السلام)). مدينة المعاجز: ٦ : ١٤١-١٤٢.

بهذا الجانب.

ولولا الزهراء عليها السلام، لما أمكن فهم وجود وتكوّن أهل البيت عليهم السلام، وذلك في جانبهم الرسالي، لا الجانب المرتبط بقدسيتهم عليهم السلام فحسب.

الإشراقة المتلألئة

أراد الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وآله الاستمرار في وجوده الإنساني والرسالي من خلال ذريته، ولم ينقطع في حركته الرسالية عن ذريته كما كتب ذلك لنوح عليه السلام أو عيسى عليه السلام أو موسى عليه السلام، وقدر تعالى أن تكون هذه الذرية متمثلة في امرأة، هي: فاطمة الزهراء عليها السلام[1] وكان يمكن أن يكون الاستمرار لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذريته من خلال أولاد ذكور كما حصل لإبراهيم الخليل عليه السلام لكن شاء الله سبحانه وتعالى أن تنحصر ذريته[2]

---

(١) كان المجتمع الإنساني في عصر الرسول صلى الله عليه وآله يرى إن المرأة كائن سيّئ، وموجود غير صالح، لا يحقق الاستمرار والبقاء للإنسان.

والشيء العجيب الذي يدل على التردي الروحي والنفسي والفكري والأخلاقي للمجتمع البشري، أنه كان ينظر لإناث الحيوانات نظرة إيجابية، بخلاف نظرته لإناث الإنسان، فالبقرة عندما تلد أنثى، فإن صاحب الحيوان يفرح؛ لأن هذه الأنثى سوف تلد أيضاً وهكذا، أما عندما تلدُ ذكراً، تراه يحزن، ويرى أن هذا الذكر ينقطع وينتهي. فالمجتمع الإنساني في زمن النبي صلى الله عليه وآله، وخصوصاً المجتمع العربي في الجزيرة العربية، كان ينظر إلى المرأة نظرة سلبية، على حدّ ما يذكره القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾(النحل:٥٨)..(المؤلف).

(٢) بالرغم من أنه صلى الله عليه وآله بحسب وضعه الطبيعي ان يكون إنسانا منجبا، فهو صلى الله عليه وآله ليس كإبراهيم عليه السلام كما أشار القرآن الكريم، حيث ان ولادة زوجته عليها السلام حالة استثنائية تعبر عن لطف الهي في البيت الذي أشار إليه القرآن الكريم بالاصطفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ كما أشار في نزول الرحمة والبركات على هذا

ﷺ بالزهراء عليها السلام.

والحديث عن ولادة الزهراء عليها السلام يكون على نحوين:

الأول: الحديث عن الخصوصيات التي تميزت بها عليها السلام في ولادتها، سواء في الحمل بها، كما جاء في بعض النصوص: إنّ نطفتها الشريفة المباركة كانت من ثمار الجنة[1]، أم في الظروف التي طرأت على الزهراء عليها السلام في حمل أمها خديجة الكبرى عليها السلام بها.

حيث كانت الزهراء عليها السلام الأنيس لأمها عليها السلام - كما تذكر الروايات - تحدّثها وهي في بطنها وتؤنسها.

في وقت كانت خديجة الكبرى - المرأة العظيمة الصالحة التي كان لها دور عظيم في تأريخ الإسلام، وفضل على الإسلام والمسلمين من خلال تضحياتها ومواقفها - تعيش الحصار والعزلة آنذاك، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن ولادة الزهراء عليها السلام كانت في السنة الخامسة من البعثة، كما هو عليه أكثر مؤرخي الإمامية، وفي هذه الفترة كان المسلمون يمرّون بظروف عسيرة، وكذلك كانت خديجة الكبرى عليها السلام تمرّ بظرف المحاصرة للنبي ﷺ، والمقاطعة المطلقة من المجتمع القرشي لها في مكة، حيث تعيش الغربة والعزلة المطلقة، فكانت الزهراء عليها السلام ترفع عنها آلام العزلة

البيت. من خلال هذه الرحمة وهذا الاصطفاء أراد الله سبحانه وتعالى لإبراهيم أن يكون منجبا هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان ﷺ كثير الزواج، ومعروف عنه ﷺ انه توفاه الله عن تسع من الأزواج، فضلا عن اللاتي تزوجهن ﷺ وتوفين في حياته، و في النصوص التاريخية: إن رسول الله ﷺ تزوج بثلاث عشرة امرأة، فبلحاظ هاتين الجهتين يفترض بحسب الطبيعة البشرية أن يكون له ﷺ عدد كثير من الأولاد..(المؤلف).

(١) كشف اليقين: ٣٥٢.

والحصار الذي تعيشه.

الثاني: الحديث عن نفس الولادة، فهناك الرعاية الخاصة من الله سبحانه وتعالى للزهراء عليها السلام، من جهة إرسال الملائكة، وإرسال النساء الصالحات اللاتي حضرن ولادتها عليها السلام[1]، وغير ذلك من الخصوصيات

---

(١) عن المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: كيف كان ولادة فاطمة عليها السلام؟ فقال: نعم، إن خديجة عليها السلام لما تزوج بها رسول الله صلى الله عليه وآله هجرتها نسوة مكة، فكن لا يدخلن عليها، ولا يسلمن عليها، ولا يتركن امرأة تدخل، عليها فاستوحشت خديجة لذلك، وكان جزعها وغمها حذرا عليه صلى الله عليه وآله فلما حملت بفاطمة كانت فاطمة عليها السلام تحدثها من بطنها وتصبرها وكانت تكتم ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله فدخل رسول الله يوما فسمع خديجة تحدث فاطمة عليها السلام فقال لها: يا خديجة من تحدثين؟ قالت: الجنين الذي في بطني يحدثني ويؤنسني، قال: يا خديجة هذا جبرئيل (يبشرني) يخبرني أنها أنثى، وأنها النسلة الطاهرة الميمونة، وأن الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة، ويجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه. فلم تزل خديجة عليها السلام على ذلك إلى أن حضرت ولادتها فوجهت إلى قريش وبني هاشم أن تعالين لتلين مني ما تلي النساء من النساء فأرسلن إليها: أنت عصيتنا، ولم تقبلي قولنا، وتزوجت محمدا يتيم أبي طالب فقيرا لا مال له فلسنا نجيء ولا نلي من أمرك شيئا، فاغتمت خديجة عليها السلام لذلك فبينا هي كذلك إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال كأنهن من نساء بني هاشم، ففزعت منهن لما رأتهن فقالت إحداهن: لا تحزني يا خديجة فإنا رسل ربك إليك، ونحن أخواتك أنا سارة، وهذه آسية بنت مزاحم وهي رفيقتك في الجنة، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران، بعثنا الله إليك لنلي ما تلي النساء من النساء، فجلست واحدة عن يمينها، وأخرى عن يسارها، والثالثة بين يديها، والرابعة من خلفها، فوضعت فاطمة عليها السلام طاهرة مطهرة. فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها النور حتى دخل بيوتات مكة، ولم يبق في شرق الأرض ولا غربها موضع إلا أشرق فيه ذلك النور، ودخل عشر من الحور العين كل واحدة منهن معها طست من الجنة وإبريق من الجنة وفي الإبريق ماء من الكوثر، فتناولتها المرأة التي كانت بين

التي تؤكد أنها عليها السلام شخصية مقدسة وطاهرة، ولها علاقة خاصة بالسماء والغيب، ولها رعاية معينة خاصة.

إذن، فالحديث عن الزهراء عليها السلام في الحقيقة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لان ولادتها لم تكن مجرد بنت تمثل الامتداد الطبيعي لأعظم إنسان في تاريخ البشرية كلها بدون استثناء فحسب، وإنما كانت الامتداد الرسالي في أهل بيته صلى الله عليه وآله.

أما تاريخ ولادتها عليها السلام، فكانت بعد البعثة بخمس سنوات[1]، وفي السنة الثانية للهجرة تزوجت[2].

وفي رواية أن ولادتها كانت قبل البعثة بخمس سنوات[3]، وفي رواية أخرى بعد البعثة بسنتين[4]، والرواية التي ذكرناها أولاً هي المعروفة في

يديها، فغسلتها بماء الكوثر وأخرجت خرقتين بيضاوين أشد بياضا من اللبن وأطيب ريحا من المسك والعنبر فلفتها بواحدة وقنعتها بالثانية، ثم استنطقتها فنطقت فاطمة عليها السلام بالشهادتين وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن أبي رسول الله سيد الأنبياء وأن بعلي سيد الأوصياء وولدي سادة الأسباط، ثم سلمت عليهن وسمت كل واحدة منهن بإسمها والصبيان يضحكان إليها، وتباشرت الحور العين، وبشر أهل السماء بعضهم بعضا بولادة فاطمة عليها السلام وحدث في السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك وقالت الدموة: خذيها يا خديجة طاهرة مطهرة زكية ميمونة بورك فيها وفي نسلها. فتناولتها فرحة مستبشرة وألقمتها ثديها فدر عليها فكانت فاطمة عليها السلام تنمي في اليوم كما ينمي الصبي في الشهر، وتنمي في الشهر كما ينمي الصبي في السنة. بحار الأنوار: ٤٣: ٢

(١) الكافي: ١: ٤٥٧: ح١٠.

(٢) بحار الأنوار: ١٩: ١٩٢.

(٣) مقاتل الطالبين: ٣٠.

(٤) بحار الأنوار: ٨: ٤٣.

تأريخ أهل البيت عليهم السلام.

ولأهمية هذه الولادة في الرسالة الإسلامية ومصيرها وحركتها تحدّث عنها القرآن الكريم في نص قرآني يمثل سورة كاملة - سورة الكوثر - في نفسها معجزة؛ لأن القرآن الكريم تحدّى في مقام الإعجاز بكل القرآن[1]، وتحدّى بعشر سور[2]، وبسورة واحدة[3]، وإحدى هذه السور، سورة (الكوثر)، فهي في نفسها تمثل الإعجاز.

وسبب نزولها هو أن المشركين كانوا يطعنون برسول الله صلى الله عليه وآله، ويعيبون عليه بأنه شخص ليس له أولاد ذكور؛ ليحاصروه، ويوجدوا حالة اليأس من رسالته ومستقبلها وإمكانية بقائها، وأنها تنتهي وتنقطع بانقطاعه[4]، لأنه (أبتر)[5].

لكن القرآن الكريم خاطبه صلى الله عليه وآله إنما الأبتر المنقطع الذي لا يستمر ولا

---

(١) ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾. الإسراء: ٨٨.

(٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. هود: ١٣.

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. يونس: ٣٨، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾. البقرة: ٢٣- ٢٤.

(٤) مع أنه صلى الله عليه وآله كان له بنات، وهناك كلام في التأريخ حول ذرية النبي صلى الله عليه وآله عدا فاطمة عليها السلام، وهل أن هذه الذرية لرسول الله أو لخديجة أو لأخت خديجة؟ وليس هذا محل بحثنا الآن..(المؤلف).

(٥) تفسير القمي: ٢: ٤٤٥.

يبقى، فأولئك الذين يتحدثون ضدك، ويسيئون إليك بهذا الحديث، هم المنتهون.

وورد في روايات عديدة: إن المقصود من الكوثر مصداقاً وتجسيداً خارجياً هو فاطمة الزهراء عليها السلام التي تمثل الخير الكثير، وهو أحد معاني الكوثر.

وأنها تمثل المنبع الذي يأتيه العطاشى من أفراد البشرية فيرتوون منه، والمورد الصافي الذي لا ينضب.

المرأة القدوة

اختصت الرسالة الإسلامية - الخاتمة - بخصائص وميزات عدة، منها: القرآن الكريم، الكتاب المحفوظ الخاتم، الذي له الدور الكبير في الإعجاز، وإثبات صحة رسالة النبي صلى الله عليه وآله على مدى الأجيال والعصور، وقد تميز عن بقية الكتب السماوية، كالتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها.

كما امتازت بمهديّ أهل البيت عليهم السلام الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما مُلئت ظلماً وجوراً[1]، ويُقيم حكومة العدل المطلق في جميع أنحاء المعمورة، والذي بشّر به جميع الأنبياء.

وهو أمر يجمع عليه المسلمون، بل وتؤكده الكتب السماوية[2]، كما أنها اختصت بشخصية هذه المرأة المتميزة الفريدة، فاطمة الزهراء عليها السلام الذي خصص القرآن الكريم لها سورة الكوثر، ومن هنا

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ٢٦٢، مسند أحمد: ٣: ٢٨، سنن أبي داود ٤: ١٠٦.

(٢) ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾. الأنبياء: ١٠٥.

لابد أن نعرف ماذا تعني ولادتها عليها السلام في الرسالة الخاتمة، بحيث يخصص لها سورة كاملة، هي: سورة الكوثر؟

لعل الله سبحانه وتعالى عندما جعل شخصية المرأة بكل أبعادها تتجسد في الزهراء عليها السلام، أراد أن يقدم للإنسان مثلاً حياً على إمكان المرأة السير في طريق الكمال، وتسلق مدارجه وصعود رُتبهُ حتى تصل إلى هذا المستوى العالي منه، بل المستوى الأعلى الذي يمكن أن يوجد لمخلوق من المخلوقات؛ لأن أعلى مستويات الكمال هو الكمال الإلهي، أما الكمال على مستوى مخلوقات الله سبحانه وتعالى فيتمثل في أعلى مستوى له بهذه النخبة الصالحة، وفيهم هذه المرأة الصالحة.

فكما أن الله سبحانه وتعالى أراد من الرجل السعي دائماً باتجاه مراتب الكمال ليصل إلى الدرجات القريبة من كمال أهل البيت عليهم السلام، أراد للمرأة الصالحة أن تسعى في مدارجه - الكمال - حتى تصل قريباً من تلك الدرجة الصالحة العالية التي وصلتها الزهراء عليها السلام، فهي مثال للاقتداء والأُسوة الحسنة، فكما لنا في رسول الله صلى الله عليه وآله أُسوة، لنا في فاطمة عليها السلام أُسوة، وفي كل جانب من حياتها عليها السلام أسوة، ففي سلوكها الشخصي أسوة، وفي سلوكها مع زوجها وأبيها أسوة فهي أم أبيها[1] كما كَنّاها النبي صلى الله عليه وآله وتعبير: (أُم أبيها) يعني: الحنان والعطف على الأب، وفي سلوكها مع ربها أسوة.

عصمة الزهراء عليها السلام

للزهراء فضل وقدسية عند الله تعالى، ولها علاقة خاصة به

---

(١) تاج المواليد: ٢٠، المعجم الكبير: ٢٢: ٣٩٧.

تعالى، وتمجيد وثناء منه، فهي ليست كأي امرأة أخرى.

وهذا من الموضوعات التي يمكن إثباتها على مستوى النصوص التاريخية إثباتاً يوجب القطع واليقين أو الاطمئنان، حسب طبيعة الشخص الذي يتعامل مع هذه النصوص. حيث يرويها علماء العامة[1] بأساليب مختلفة، وهي ليست نصاً واحداً يرويه جميع علماء العامة، وإن كانوا لا يجمعون على روايتها بأجمعها، ولكنهم يروونها بطريقة أن هذا العالم يروي نصاً، وذاك يروي نصاً آخر، والثالث والرابع وهكذا.

وتجمع هذه النصوص بصورة عامة على نقطة مركزية، وهي: قدسية الزهراء عليها السلام، وهذا ما يُعبّر عنه في الأبحاث الأُصولية (بالتواتر الإجمالي)[2]، ولذا نلاحظ أن أهل السنة بصورة عامة يطمئنون لها. فإذن، ليس غريباً ولا مستغرباً أن يكون موقع الزهراء عليها السلام من الشريعة الإسلامية، هو موقع المعصوم الذي يكون قوله وفعله حجة بشكل عام، وباعتبار أن الأدلّة من القرآن الكريم، ومن السنّة الشريفة المتواترة نصّت

---

(١) تثبيت الإمامة: ٢٨، السنن الكبرى: ٥: ٩٧: ح ٨٣٧٠، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام: ١٢١، الذرية الطاهرة النبوية: ٤٨، صحيح ابن حبان: ١٥: ٤٠٨، المعجم الكبير: ٢٠: ٢٠، أمالي الحافظ الأصبهاني: ٤٥، نظم درر السمطين: ١٧٦، الجامع الصغير: ٢: ٢٠٨، كنز العمال: ١٢: ١٠٧ وهناك عدد كبير من الأحاديث الشريفة تضمها عشرات المصادر تؤكد قدسية الزهراء عليها السلام وعمق ارتباطها بالله عز وجل.

(٢) أي: إن المضمون الإجمالي للنصوص يصبح أمراً متظافراً و متواتراً، وإن كان كل نص لوحده لا يكون كذلك، لكن المضمون الإجمالي وهو: (إن الزهراء عليها السلام امرأة مقدسة، ومتميزة في قدسيتها، وشأنها ليس كشأن بقية النساء) يمكن فهمه من مجموع هذه النصوص..(المؤلف).

على عصمتها عليها السلام، فيكون قولها وفعلها وإمضاؤها[١]- أيضاً - حجة وسنة، ولابد من العمل به، ولا يمكن العصيان والذنب بحقها عليها السلام، كما لا يمكن افتراض الخطأ في أقوالها وأفعالها، ولذا لا بد أن تكون هذه الأقوال والأفعال والتصرفات متطابقة تماماً مع الشريعة، وبالتالي تكون دليلاً وحجةً على الحكم الشرعي، شأنها في ذلك شأن بقية المعصومين.

ولمة نصوص يمكن الاستدلال بها على عصمتها عليها السلام، منها:

الأول: آية التطهير

أجمع المسلمون على أن أحد المصاديق الواضحة لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[٢]، هو الزهراء عليها السلام، حيث طبّقها رسول الله ﷺ عليها عليها السلام في مواضع متعددة وكثيرة.

صحيح إن هناك خلافاً بشكل محدود عند بعض المفسرين حول شمول الآية الشريفة لـ بعض نساء النبي[٣]، ولكن في مقام التطبيق الذي كان يقوم به رسول الله ﷺ لهذه الآية على المصاديق الخارجية - والتي يفترض فيها الطهارة الكاملة - لم يتم إلاّ للخمسة أصحاب الكساء، وهم أمير المؤمنين عليه السلام والزهراء عليها السلام وولداها الحسن والحسين عليهما السلام،

---

(١) ويسمى التقرير أيضاً، ومعناه: سكوت المعصوم عن فعل غيره بنحو يدل على قبوله، فلو أن أحداً توضأ - مثلاً - أمام المعصوم وسكت عنه، ففي هذا دليل على أن المعصوم أقر فعله وارتضاه. وبهذا تكون السنة، التي هي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن، تشمل قول المعصوم وفعله وتقريره.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) البرهان للزركشي: ٢: ١٩٧.

تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض))[1] لا ينافي هذا الأمر؛ لأن هذا الحديث ليس بدلاً من حديث الثقلين ويمكن حينئذ افتراض صدور حديث الثقلين، أيضا منه ﷺ، مضافاً إلى أن هناك شكاً حقيقياً بحديث **((خلّفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض))**.

ويذكر العلماء أسباب الشك في حديث **((كتاب الله وسنتي))**، هو عدم وجود راوٍ آخر للحديث غير أبي هريرة، مع أنه من الأحاديث المهمة، ومن المفروض أن يُتداول في الطبقات والأجيال.

ثم إنّ مضمون السنة مُبهم وغامض، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنها لم تُدَوّن بشكل عام إلاّ بعد فترة طويلة من الزمن، وذلك في زمن عمر بن عبد العزيز، حيث ان الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب منع المسلمين إن يكتبوا السنة ويدونوها[2]، وبالتالي لم يكن لها تشخيص ووجود خارجي واضح ومبين، حتى يمكن افتراض إرجاع رسول الله ﷺ المسلمين إلى هذا الأمر المشخص.

---

(١) سنن الدارقطني: ٤: ١٦٠.

(٢) روي عن عائشة أنها قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ فكانت خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيراً، فقلت: فغمني فقلت تتقلب لشكوى او لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك فجئته بها فدعى بنار فاحرقها... الحديث).. كنز العمال: ١٠: ٢٨٥.

عن يحيى بن جعدة قال: أراد عمر (رضي الله عنه) أن يكتب السنة ثم بدا له أن لا يكتبها، ثم كتب في الأمصار: من كان عنده شيء من ذلك فليمحه). كنز العمال: ١٠: ٣٩١.

فالقرآن الكريم كان محدّداً ومعروفاً، وكذلك العترة الطاهرة، أما السنة فلم تكن محدّدة؛ لأنها لم تكتب حتى يُقال: إن المكتوب هو السنة، وإنما كانت في صدور الرجال، وتُتداول بين الأشخاص بشكل متضارب غير مشخص وواضح، فلا يمكن إرجاع النبي ﷺ المسلمين للسنة حينئذ.

ومن الواضح أن حديث الثقلين ينطبق على الزهراء عليها السلام؛ لأنها من أوضح مصاديق عترة النبي ﷺ، وأنّها أقرب الناس لرسول الله ﷺ من حيث الصلة والنسب، فهي أقرب حتى من عليٍّ عليه السلام والحسنين عليهما السلام؛ باعتبار أنّها بنت النبي بشكل مباشر، لذا فإن أوضح مصداق لعترة النبي ﷺ هو الزهراء عليها السلام.

وعندما يُفترض أن العترة مقارنة للقرآن الكريم، ولن تفترق عنه حتى يردا على الحوض، فلابد أن يفترض في العترة الصحة والصواب، دون أن يكون هناك شيء من الخطأ والاشتباه، فضلاً عن الانحراف.

فمن هنا أيضاً تكون الزهراء عليها السلام معصومة بهذا النص الشريف، وعصمتها دليل على حجتها من الناحية الشرعية.

الثالث: أحاديث أخرى متظافرة

ومن الأحاديث التي روتها الخاصة والعامة، في صحيح البخاري[1]

---

(١) وهو من أشد الكتب الحديثية السنيّة تعصباً وتطرفاً وابتعاداً عن ذكر أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم وآثارهم، وهذه خصوصية واضحة في ما يسمى بصحيح البخاري، فهو يحاول إلى أبعد الحدود أن يخفي المعالم التي تهدي الناس وتدلّهم على أهل

وفي كتب مختلفة من مصادر الجمهور هذا المضمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني))[1].

فقد قرن النبي صلى الله عليه وآله سخط فاطمة بسخطه، وغضبها بغضبه، وأذاها بأذاه، ورضاها برضاه فعندما يكون رضا فاطمة عليها السلام رضاً لرسول الله، فلابد أن نفترض أن تصرفات فاطمة عليها السلام ورضاها وغضبها وحتى عواطفها دائماً صحيحة نبيلة متطابقة مع الواقع؛ لان رسول الله صلى الله عليه وآله ليس شخصاً ينطق عن الهوى أو عن الميول والرغبات والأهواء، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]، فكل حركاته وسكناته صلى الله عليه وآله مرتبطة بالوحي والتعاليم الإلهية والأحكام الشرعية.

وهناك روايات وأدلّة مروية من طرق أهل البيت عليهم السلام تفصح عن عظمة فاطمة عليها السلام وقداستها وطهارتها، وليس فقط أنها معصومة، بل في أعلى درجات العصمة من حيث شخصيتها وخصائصها، ولكن هذه النصوص الثلاثة يمكن بيانها لعامة المسلمين، كي يستفيدوا منها مهما كانت مذاهبهم ومشاربهم واتجاهاتهم؛ لكون القرآن الكريم مقبول لدى المسلمين جميعاً، وكذلك الأحاديث المتواترة عن الرسول صلى الله عليه وآله.

البيت عليهم السلام، لكن رغم موقفه هذا وموقع بين عامة المسلمين يعتقد بعض المسلمين أن صحيح البخاري أصبح الكتب بعد كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد أورد هذا القول: ((فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني))، صحيح البخاري: ٤: ٢١٠، باب مناقب فاطمة عليها السلام..(المؤلف).

(١) صحيح البخاري: ٤: ٢١٠ و٢١٩، فتح الباري: ٧: ٦٣، السنن الكبرى: ٥: ٩٧، المعجم الكبير: ٢٢: ٤٠٤، كنز العمال: ١٢: ١٠٨ ينابيع المودة: ٢: ٥٢ و ٧٣.

(٢) النجم: ٣-٤.

النبي والزهراء

قد يفهم الإنسان منذ البداية أن سبب التأكيد الصادر من رسول الله ﷺ على شخصية الإمام علي عليه السلام، باعتبار أنه عليه السلام أُريدَ له أن يكون إماماً للمسلمين، وأن يأخذ هذا الموقع المتميّز بينهم في الرسالة الخاتمة، التي امتازت بوجود منصب الإمامة فيها.

وكذلك يمكن أن يفهم الإنسان تركيز وتأكيد الرسول الأكرم ﷺ على الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام باعتبارهما يمثلان امتداداً للإمامة، والدور العظيم الذي يمكن أن يقوم به هذان الإمامان في مستقبل الإسلام، كما قاما به - فعلاً - وهو من الأدوار المتميزة في حركة التأريخ الإسلامي.

لكن قد يبدو التأكيد والتركيز على الزهراء عليها السلام وشخصيتها من قبل النبي ﷺ غريبا، فهل أن هذا القدر الكبير من الاهتمام مجرّد تعبير عاطفي أصيل؟ أو أنّ وراءه أهدافاً أخرى مهمة وصالحة؟.

يتحدث القرآن الكريم مثلاً عن دور متميز لنساء مهمات في التأريخ الإنساني، من قبيل دور امرأة فرعون، آسية بنت مزاحم: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1] أو دور السيدة مريم بنت عمران عليها السلام التي وصفها القرآن الكريم بالاصطفاء والتطهير والموقع الخاص: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

---

(١) التحريم: ١١.

(٢) آل عمران: ٤٢.

لكن يبقى هذا الحديث - في ما عرضه القرآن - حديثاً يرتبط بالسلوك الشخصي لمريم عليها السلام وتكاملاتها المعنوية الروحية، وكذلك في السلوك الشخصي والموقف الرسالي ذي الطابع الشخصي لآسية امرأة فرعون.

أما الزهراء عليها السلام، فمن خلال نظرة الإسلام وتأكيداته عليها عليها السلام يبدو أن لوجودها ودورها أبعاداً أوسع بكثير من البعد الذي يمكن أن يرى في شخصية السيدة مريم عليها السلام أو شخصية السيدة آسية.

فمثلا ظاهرة حب النبي صلى الله عليه وآله للزهراء عليها السلام على مستوى الجانب العاطفي، لا الحب بمعنى التقديس والتكريم لها عليها السلام، وإنما الجانب العاطفي المتميز الذي يشكل ظاهرة لا تشبهها الظواهر الطبيعية الموجودة في علاقات الآباء بالأبناء.

فالآباء بصورة عامة يحبون أبناءهم، وتوجد أواصر المودّة والمحبة والعاطفة بينهم، وهذه حالة عامة إلا ما استثني.

والمحبة لها درجات ومستويات، قد يكون بعضها ضعيفاً، يعبّر فيها الأب عن حبه لولده، وأحياناً تكون عالية.

ولكن نلاحظ في النصوص التاريخية التي وردت في علاقة الحب بين النبي صلى الله عليه وآله وابنته الزهراء عليها السلام درجة عالية جداً لا تشبهها حتى الدرجات العالية للمودة والمحبة المعروفة بين الآباء وأبنائهم، فضلاً عن الدرجات الدانية.

وقد كانت هذه الحالة ملفتة لأنظار المسلمين - آنذاك - وتبعث على السؤال المجرد، وأحياناً تبعث على الإعجاب، وأخرى على الاستنكار من قبل بعض الأشخاص، حسب طبيعة السائل وشخصيته وموقفه من هذه الظاهرة.

ونجد هذه الظاهرة في نصوص كثيرة جداً، كالنص الذي يقول: إن

النبي ﷺ لم يكن يسافر إلاّ ويطرق باب الزهراء عليها السلام ويودعها، ولم يكن يرجع من سفر إلاّ ويصنع ذلك معها[١].

وفي نص آخر: عن الرسول الأعظم ﷺ: ((**وامّا ابنتي فاطمة، فانها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين وهي بضعة مني، وهي نور عيني، وهي ثمرة فؤادي، وهي روحي التي بين جنبي، وهي الحوراء الإنسية**))[٢].

وعن عائشة، قالت: ((**ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه، قام إليها فقبلها ورحب بها، كما كانت تصنع هي**))[٣].

وهناك روايات عديدة فيها هذا النوع من التفاصيل[٤].

بحث روائي

وعلى مستوى بحث هذه الروايات نرى إننا لو بحثناها رواية رواية، فقد يواجهنا إشكال في سند هذه الرواية أو تلك، وقد لا نصل إلى نتيجة واضحة على مستوى الجانب الأول من البحث في اعتماد النص التاريخي.

ولكن إذا أخذنا هذه الروايات بمجموعها من أجل إثبات أصل ظاهرة حب النبي ﷺ المتميز لفاطمة عليها السلام، لترتيب أحكام معينة عليها، أو

---

(١) كشف الغمة: ٢: ٧٩.

(٢) أمالي الشيخ الصدوق: ١٧٥.

(٣) مكاتيب الرسول: ٣: ٦٩٩. عن الاستيعاب: ٤: ٣٧٧.

(٤) ومنها قوله ﷺ: ((**أن فاطمة بضعة مني**)) كنز العمال: ١٢: ١٠٦ وغيرها من الأحاديث بهذا المضمون.

تشخيص موقف معين - فيمكن أن يقال: إن هذه النصوص إما أنها متواترة، أو - على الأقل - متظافرة، تبعث على الاطمئنان، بل اليقين بوجود هذه الظاهرة، حسب الأشخاص الذين يتعاملون مع هذه النصوص.

وهذه النصوص يرويها البخاري[١]، المعروف بتشدده تجاه ما يرد عن أهل البيت عليهم السلام، وكذلك يرويها مسلم[٢] والترمذي[٣]، بل عامة الكتب المعروفة عند جمهور المسلمين.

وكذلك يرويها أتباع أهل البيت عليهم السلام بشكل أو بآخر في كتبهم المختلفة، المعتبرة، أمثال كتاب الكافي، أو كتب الشيخ الصدوق والشيخ الطوسي وغيرها من الكتب الكثيرة[٤]، التي جاءت بعد هذه الأدوار، ودونت أحوال الزهراء عليها السلام.

كما يرويها أشخاص كانوا على موقف عداء مع الصديقة الزهراء عليها السلام، أو أصحاب موقف متحفظ - على أقل تقدير - أزاء الزهراء ومع ذلك يعبرون عن هذا الموقف في نفس هذا النص.

فعندما نرى هذا التنوع في الرواة، و في الكتب التي ذكرت هذه الروايات، ونرى الكثرة في هذا النوع من الروايات، نصل في الاستنتاج

---

(١) صحيح البخاري: ٤: ١٨٣، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٩.

(٢) صحيح مسلم: ١٣٠:٧، ١٤١، ١٤٣.

(٣) سنن الترمذي: ٥: ٣١، ٣٢٦.

(٤) الكافي: ١: ١٩٥: ح٥ أمالي الصدوق: ٥٧٤: ح٧٨٧ كفاية الأثر: ٦٦، وسائل الشيعة: ٢٠: ٦٧: ح٧، دلائل الإمامة: ١٤٢: ح٤٩، شرح الأخبار: ٣: ٣٠: ح٩٧٠، الاعتقادات: ١٠٥.

التاريخي عندئذ إلى اليقين بوجودها.

الأسوة الحسنة

والتأسي برسول الله ﷺ ضرورة أشار لها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[1].

والمراد بـ(التأسي) هنا: هو السير على نهج رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، حيث أنهم يمثلون الخط الإسلامي الأصيل والأسوة والعصمة والكمال في مختلف المستويات.

ولا يعني عدم قدرة ارتقاء الإنسان إلى مستوى الأنبياء والأئمة من حيث الكمال يكون مبررا للسماح له - الإنسان - بإيجاد فاصل أو أكثر بينه و بينهم عليهم السلام، صحيح، أننا لا يمكن الوصول إلى درجة رسول الله ﷺ[2]، لكن القرآن أراد من الإنسان السير في طريق الأنبياء والأئمة وهو طريق الكمال، ووصولنا إلى هذه الدرجة العالية من الكمال أو عدم وصولنا، قضية جعلها الله سبحانه وتعالى مرهونة بقدراتنا و طاقاتنا وإمكانياتنا، غير أننا نشاهد في كثير من الأحيان أن البعض يقول: أين نحن من رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام والزهراء عليها السلام؟ هؤلاء معصومون، وبالتالي فهم يتصفون بأعلى مراتب الكمال، ونحن لسنا بمعصومين، وبالتالي فلا يمكن أن نكون مثلهم، ولكننا على طريقهم.

---

(١) الأحزاب: ٢١ - ٢٣.

(٢) فأين نحن من رسول الله؟! نحن لا نكون تراب أقدامه ﷺ، أو أقدام أمير المؤمنين عليه السلام، أو أقدام إمام من الأئمة المعصومين عليهم السلام..(المؤلف).

ومن هنا يسمحون لأنفسهم بإيجاد فاصلٍ بينهم وبين هؤلاء الأئمة وكل الأنبياء والصالحين من عباد الله، باعتبار أن الإنسان ما دام لا يتمكن أن يبلغ هذه الدرجة العالية من الكمال، فكأنه يُعرِض عنها، ويسمح لنفسه ارتكاب الكثير من الأعمال التي تتنافى مع الكمال. ولكن كما تقدم نحن مسؤلون أمام الله سبحانه وتعالى عن السير بهذه السيرة، والتي منها حبه ﷺ للزهراء عليها السلام وهذه الأسوة أمانة[1].

أبعاد شخصية الزهراء عليها السلام

حينما يصف النبي ﷺ الزهراء عليها السلام بأنها سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين على ما ورد عنه ﷺ انه قال: ((**إن عليا وصيي وخليفتي وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين ابنتي، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ولداي، من والاهم فقد والاني، ومن عاداهم فقد عاداني، ومن ناوأهم فقد ناوأني، ومن جفاهم فقد جفاني، ومن برهم فقد برني، وصل الله من وصلهم، وقطع الله من قطعهم، ونصر الله من أعانهم، وخذل من خذلهم، اللهم من كان له من أنبيائك ورسلك ثقل وأهل بيت فعلي وفاطمة والحسن والحسين أهل بيتي وثقلي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا يا رب العالمين**))[2]. يراد من ذلك إعطاء وتقديم الأبعاد المتعددة في هذه الشخصية، ومن ثم إعطاء هذه الأدوار المتعددة في شخصية المرأة وحركتها في المجتمع والتأريخ؛ لأن الزهراء هي

---

(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾... النساء:٥٨.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٤: ٤٢٠.

المثال الصالح لذلك.

وبصورة مختصرة أشير إلى عدد من هذه الأبعاد وعناوينها الرئيسة في شخصية الزهراء عليها السلام التي لم توجد في النساء اللاتي سبقنها، ومن ثم نعرف سر كل هذا التأكيد الواسع من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله وقبله تأكيد القرآن الكريم على شخصيتها عليها السلام:

الأول: البعد الأسري

إن النظرية الإسلامية في فهمها للمجتمع الإنساني ورؤيتها لتركيبته العامة، ترى أن اللبنة الأساسية في البناء الاجتماعي، والتي تشكل الوحدة المركزية فيه هي الأسرة.

فالنظرية الإسلامية ترى أن الأسرة تمثل وحدة رئيسة ومركزية في بناء المجتمع، ولا يمكن أن يبنى المجتمع الصالح ويتكامل دون بناء الأسرة الصالحة، ومن هنا نجد أن الإسلام طالما أكد ويؤكد أهمية دور الأسرة في المجتمع على خلاف رؤية الحضارة الغربية والمجتمعات الأخرى التي لا ترى للأسرة مثل هذا الدور المهم في بناء المجتمع وقوته وتكامله.

لكن الإسلام يرى أن قوة الأسرة وصلاحها وتماسكها وتكاملها واتصافها بالمواصفات المطلوبة، هي التي تمكنها أن تحوّل المجتمع إلى مجتمع صالح متكامل، ولا شك أن الزوجة والأم تمثل الركن الرئيس في الأسرة وبنائها، إن لم نقل: الركن الأهم في هذا البناء من الناحية الداخلية والذاتية، وفي هذا المجال أنبّه إلى نقطة مهمة جداً في شخصية الزهراء عليها السلام، لم تتوفر في غيرها من النساء الصالحات اللاتي تحدث عنهنّ القرآن الكريم، وتحدث عنهنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من قبيل آسية بنت مزاحم أو مريم ابنة

عمران عليها السلام التي لم تتوفر لها ظروف أسرة كاملة، وكذلك لم تتوفر لآسية زوجة فرعون ظروف أسرة كاملة وصالحة في حركتها، فهي وإن كانت زوجة، لكن لم يكن لها أولاد، وكانت زوجة طاغية مستبد، ولم تكن قادرة على أن تعبّر عن تلك العلاقة القوية في إحكام الأسرة وعلاقاتها وبنائها.

أما خديجة عليها السلام فقد كان لها دور في الجانب الأسري، فهي زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله وأم ذريته؛ لأنها أم الزهراء عليها السلام فهي تشبهها من هذه الناحية، ولكن الزهراء عليها السلام امتازت عن أمها في الأدوار الأخرى التي مارستها في حياتها، والتي استطاعت أن تحفظ في شخصيتها قضية الموازنة بين هذه الأدوار، و (الموازنة) عنصر غاية في الأهمية لحركة المرأة.

بعض النسوة قد يوفقن لأن ينهضن بدور مهم في الجانب الأول أو في الجانب الثاني: في العبادة وفي جهاد النفس والقيام بالأعمال الصالحة ثم الوصول إلى الكمالات العالية، وقد يكون لهن دور مهم في الجانب الثالث: في الرعاية المنزلية وفي ترتيب وضع الأسرة وجعلها أسرة قوية صالحة، والبعض منهن يكون دورهن كبيراً في التضحية والفداء، لكن الجمع بين كل هذه الأدوار وإيجاد حالة (الموازنة) بين هذه الأعمال والأدوار أمر بالغ الصعوبة و قضية هامة جداً.

فالزهراء عليها السلام كانت ربة بيت تطحن الحنطة في بيتها، وتنظف، وهي في عين الوقت المرأة العالمة الفاضلة، وفي الوقت نفسه المرأة المجاهدة المدافعة عن مبادئها، وهي التي منحت جميل رعايتها ووافر حنانها

لأبنائها، وأعطت لزوجها كامل حقوقه، ووهبت لأبيها خالص اهتمامها حتى كناها ﷺ بـ (أم أبيها)[1]، حيث كانت عليها السلام في رعايتها للأسرة وللبيت وما يرتبط به في أعلى درجات الرعاية. وبذلك ضربت الزهراء عليها السلام المثل الأعلى في هذا البعد.

الثاني: البعد العلمي

إذا نظرنا إلى بعد مهم جدا في حياة الزهراء عليها السلام، نجد أنها عليها السلام في علمها وفضلها ومعرفتها للإسلام وتثقفها وتعلمها على يد رسول الله ﷺ - أيضاً - ضربت المثل الأعلى، فقد كانت تدوّن ما تسمعه من رسول الله ﷺ، شأنها شأن أهل البيت عليهم السلام، خصوصاً الأمور التي يذكرها رسول الله ﷺ في مجالسه ولقاءاته وشؤونه الخاصة، ولولا تدوينها وحفظها من قبل أهل البيت عليهم السلام لحُرِّفت أو فُقدت تلك الأحاديث؛ لأن النبي ﷺ لم يبيّنها بشكل عام كي يحفظها المسلمون، وإنما ذكرها بشكل خاص، فكانت فاطمة عليها السلام تدوّن ذلك، كما أن علياً عليه السلام دوّن ما سمعه من رسول الله ﷺ في ما يسمى بكتاب: (الجامعة) أو (الجامع) أو (الصحيفة)، كما ورد في بعض الروايات[2].

فكانت فاطمة عليها السلام تدوّن ما تسمعه من رسول الله ﷺ في المجالس الخاصة، وهي مجالس كثيرة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يجلس إليها، ويزورها، ويتحدث إليها وإلى زوجها أحاديث كثيرة، خصوصاً ذات

---

(١) تاج المواليد: ٢٠، المعجم الكبير: ٢٢: ٣٩٧.

(٢) الكافي: ١: ٥٧: ح١٤، باب البدع والرأي والمقاييس:٢٣، باب ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام.

الطبيعة التي تتحدث عن الأوضاع المستقبلية، وما سيجري للمسلمين، باعتبار أن رسول الله ﷺ مضافاً إلى علمه الذي هو أوسع من العلوم العادية، و الذي تلقاه من الله سبحانه وتعالى فيما يتعلق بشؤون الحياة والكون كان يعرف بشكل دقيق وواضح مجرى السنن الطبيعية الكونية التي تتحكم في حركة التأريخ[1]، ومن خلال هذا التدوين تكوّنَ عندها كتاب[2] يطلق عليه:(مصحف فاطمة).

كما أنها عليها السلام امتازت بمعرفة الأحكام الشرعية والشريعة الإسلامية، وتفسير القرآن وكل مفاهيم الإسلام لقربها من أبيها ﷺ. حيث إن النبي ﷺ باعتبار ما تحمّله من مسؤلية البيان والتبليغ عن الله سبحانه وتعالى، لابد أن نفترض أنه فسّرَ القرآن الكريم، وبيّنَ أحكام الشريعة بكل تفاصيلها وأبعادها، ولم يترك شيئاً خفياً أو محفوظاً عنده؛ لأن

---

(١) أما نحن فليس لدينا القدرة على معرفة مجرى هذه السنن وملابساتها ومقارناتها وآثارها ومترتباتها، وبالتالي فإن الرسول ﷺ كان يعرف ما سيجري في التأريخ من خلال مجرى السنن، وكان يتحدث بأنباء وأخبار وأوضاع سوف يعيشها المسلمون بتفاصيل معينة خاصة..(المؤلف).

(٢) والكتاب عندما يكون في صحائف مرتبة يسمى في اللغة العربية (مصحفاً)، وكلمة المصحف تحولت بين المسلمين إلى مصطلح يراد منه خصوص القرآن الكريم، وإذا رجعنا إلى تأريخ هذه الكلمة في الصدر الأول للإسلام لا نجد لها اصطلاحاً خاصاً بالقرآن الكريم، وإنما تكوّن هذا الاصطلاح بعد ذلك تدريجياً، فأصبحت كلمة المصحف يراد منها القرآن الكريم، كما في كلمة الصلاة التي أصبحت فيما بعد يُراد منها هذه الممارسة العبادية الخاصة التي يعرفها المسلمون، مع أن كلمة الصلاة ليست لخصوص هذا النوع من العبادات، وإنما هي كل دعاء يتوجه به الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى..(المؤلف).

المسؤلية التي يتحمّلها قضية يقينية لا شك فيها، باعتبار شخصيته ومسؤليته تجاه الشريعة الإسلامية، والقرآن والأحكام الإسلامية. لكن إذا نظرنا للواقع الخارجي المحفوظ عنه، سواء الصحيح منه أم غير الصحيح، نجد أن ما أُثر عنه في تفسير القرآن، محدود جداً لا يكاد يتناسب مع عالم فاضل من سائر الناس، فضلاً عن شخص رسول الله الذي كان يتحمّل مسؤلية بيان القرآن وتفسيره بكل أبعاده.

وهذا الأمر يثيرُ سؤالاً مهماً، وهو: كيف يمكن أن نفترض الرسول ﷺ وهو يتحمّل هذه المسؤليات يكتفي بهذا القدر من البيان في تفسير القرآن؟

وتفسير هذه الظاهرة يتم بما يلي:

أولاً: ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من أنهم قد أكدوا وبينوا: إن رسول الله ﷺ كان يخصُّ علياً ببيان الشريعة بكل تفاصيل أحكامها[1]، كما كان يخصّه ببيان تفسير القرآن بكل تفاصيله[2].

ثانياً: إن الناس في ظروفهم الاجتماعية والسياسية لم يكونوا يتحملون هذا البيان والشرح والتوضيح للقرآن الكريم ومعالم الشريعة، بعكس العترة الطاهرة التي كانت تتحمّله.

إذن، النبي ﷺ بيّنَ تفسير القرآن الكريم كله، وكل الشريعة الإسلامية للإمام علي عليه السلام وللزهراء عليها السلام، ومن هنا كانت عليها السلام مصدراً من مصادر الشريعة، بمعنى أنها منبع من المنابع الصافية التي يمكن أن

---

(١) لأن رسول الله ﷺ في حركته العامة لم تكن لديه الفرصة لبيان كل هذه الأمور للناس..(المؤلف).

(٢) الكافي:١ :٦٤:ح١.

تؤخذ منها الشريعة؛ لأنها تلقّت تفسير القرآن الكريم والشريعة عن النبي ﷺ بشكل مباشر، كما تلقّاها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

ولذا نلاحظ الإمام علي عليه السلام يؤكد على وجوب الرجوع إليه في الأحكام الشرعية، ونجد - أيضاً - المسلمين بشكل عام، حينما كانوا يواجهون المشكلات المستجدة الحادة يرجعون له عليه السلام.

والكلمة التي أطلقها عمر في مناسبات عديدة بشأن الإمام علي عليه السلام ((**لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن**))[1] شاهد على هذه الحقيقة.

فالإمام علي عليه السلام حتى الخلفاء والصحابة بشكل عام كانوا يشعرون بهذا التميّز؛ ولذلك عُرف عنه عليه السلام أنه أقضى المسلمين: ((**أقضاكم علي**))[2]، و((**أعلمكم علي**))[3]، و((**أنا مدينة العلم وعلي بابها**))[4]، كما يقول رسول الله ﷺ، وقول علي عليه السلام أيضاً: ((**علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يُفتحُ من كل باب ألف باب**))[5].

هذه الحقيقة ترجع إلى هذه النظرية، والزهراء عليها السلام كانت ضمن هذه الحقيقة؛ لأنها مع رسول الله ﷺ وتعاشر علياً عليه السلام فهي عالمة بالأحكام الشرعية والشريعة الإسلامية وتفسير القرآن وكل مفاهيم الإسلام لقربها من أبيها ﷺ.

---

(١) دلائل الإمامة: ٢٢.

(٢) دلائل الإمامة: ٢٣٦.

(٣) الكافي: ٧: ٤٢٣ - ٤٢٤:ح٦.

(٤) مستدرك الحاكم: ٣: ١٢٧، والمعجم الكبير للطبراني: ١١: ٥٥.

(٥) دلائل الإمامة: ٢٣٥.

وبالتالي فهي مصدر ومرجع بهذا المعنى من المصدرية والمرجعية، ولها دور شبيه إلى حد كبير بدور الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الشريعة الإسلامية.

الثالث: البعد السياسي

لابد من الإشارة إلى أن الإمامة مسألة مصيرية في حركة أتباع أهل البيت عليهم السلام، ولابد - دائماً - من ملاحظتها منذ بداية هذا الخط، الذي يفتخر ويعتز أتباعه به، ويعتبرونه سبيلاً لنجاتهم يوم القيامة لانتسابهم له، وولائهم لعلي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام.

فإذا درسنا أصل وجوده وحركته، نجد أنه مرتبط بقضية سياسية، أساسية وهي: (الإمامة)، وهي أهم القضايا السياسية ذات الارتباط بهذا الخط الإسلامي الأصيل على طول التأريخ الإسلامي.

وهناك جانب عظيم جداً لابد أن يؤخذ بنظر الاعتبار، وهو: موقف الزهراء عليها السلام السياسي من هذا الخط الأصيل للإسلام، فهي عليها السلام لم تكن معزولة عن حركة المجتمع، ولا عن حركته السياسية، وقضايا العدل والظلم، بل كانت تشارك مشاركة حقيقية، حسب ما قُدّر لها، فهي رغم أنها عليها السلام ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، وزوجة علي عليه السلام وسيدة نساء العالمين وأطهر النساء، وأبعدهن عن الدنس، وتتمثل فيها كل صفات الكمال، لكنها لم تتخلّ عن مسؤولياتها عندما واجهت الانحراف والظلم، فقد كانت عليها السلام على استعداد لتحمل كل المحن والآلام والأذى.

لقد قامت بدور يمكن أن نقول فيه: لولا موقفها - في ذلك اليوم الذي قامت به - إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام لكان من الممكن أن تخفى الإمامة على الأجيال التي جاءت بعد علي عليه السلام، وتتشوه وتتغير، ولولا إكمالها

دور علي عليه السلام - في ذلك اليوم - لكان من الممكن اختفاء هذه الحقيقة على كل المسلمين، ويبقى المسلمون في ضلال وبُعد عن الواقع الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله.

لقد كان للزهراء الدور العظيم في حفظ الإسلام، والحقائق الإسلامية، والمنهج والمذهب الصحيح الذي توارثناه عن أهل البيت عليهم السلام.

وهذا شبيه بدور الإمام الحسين عليه السلام بتضحيته وفدائه، والذي أكملته العقيلة زينب عليها السلام ولولا هذا التكامل في الأدوار بين الحسين وزينب عليهما السلام لم يحفظ الدين، ولم يبقَ.

لقد كان الأمويون يبغضون آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وآل علي عليه السلام، ويضطهدوهم، وإن كان بعض الكتاب والمؤرخين يذهب إلى أن ذلك بسبب وجود قضايا عشائرية وعائلية قديمة جداً، واستمر هذا الحقد حتى بعد الإسلام.

وحاول بعضهم أن يحسّن الصورة فقال: إن الأمويين كانوا أول الأمر أعداءً للإسلام، وكان علي عليه السلام أول أنصار الإسلام، وقاتل من أجله، فقتل الكثير من العائلة الأموية، فأنتج بعدين للعداء: بُعد قبلي، وبُعد يرتبط بتأريخ الإسلام وحركته.

ولكن إذا أُخذتْ الحالة المقابلة، وهي: حالة العباسيين، فلا يوجد كلام في أنهم أولاد عم علي عليه السلام[1]، وكانوا في أول الأمر إلى جانب النبي صلى الله عليه وآله، وإن كان العباس قد خرج يقاتل النبي في بدر[2] ولكن من المعروف أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله، حتى أنه كان يُعدُّ عيناً لرسول الله

---

(١) وهم من بني هاشم.

(٢) سيرة النبي صلى الله عليه وآله: ٢: ٤٥٨.

في مكة.

وهكذا عبد الله بن العباس الذي ارتبط بالإمام علي عليه السلام وأولاد العباس كانوا يرتبطون بأولاده عليهم السلام في المعارضة والحركة السياسية العامة للمسلمين، وبعد تولي العباسين الحكم كان يمكنهم أن يقوموا بتقليد آل علي، كعلماء وأئمة في الدين لكل المسلمين، ولم يكن هناك أي مانع نفسي أو سياسي لأن يكون آل علي أئمة وعلماء للمسلمين، لولا قضية واحدة، وهي الحق، فأهل البيت عليهم السلام كانوا يريدون أن يكون مسار التأريخ الإسلامي ذا طبيعة معينة ملتزمة بالخط الأصيل للإسلام، الذي نفتخر بالانتساب له.

فإذن شيعة علي عليه السلام أصحاب أطروحة سياسية، وهم جزء من حركة التأريخ السياسي الإسلامي العميق، الذي تمكن أن يحفظ الإسلام حتى الآن، بتضحيات أمير المؤمنين عليه السلام والزهراء عليها السلام والحسن والحسين وأئمة أهل البيت عليهم السلام وعلماء الدين، وتضحيات شيعة علي عليه السلام في طول البلاد الإسلامية وعرضها. وقد تمكن هذا الخط من الصمود والثبات والنمو والانتشار في بلاد الله العريضة؛ بفضل قضية الإمامة، وأنه خط تربى على الوقوف دائماً إلى جانب الحق، وتقديم التضحيات لإحقاقه ومصارعة الباطل، رغم كل ما تعرض له من اضطهاد وتعسف من قبل السلطات الحاكمة.

الزهراء عليها السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله

تمهيد

قبل وفاة رسول الله ﷺ بسبعين يوماً[١] بايع عامة المسلمين وفي جمع حاشد ومن أقطار الجزيرة العربية[٢] علياً عليه السلام، في يوم مشهود حيث قالوا له: ((بخ بخ لك يا بن أبي طالب))[٣]، غير أنهم بعد وقت قصير نسبياً كادوا أن يجمعوا على إجباره عليه السلام في أن يبايع غيره، في تلك الحادثة[٤] التي أدت إلى استشهاد الزهراء عليها السلام.

ومن هنا ينفتح باب السؤال عن أسباب هذا التحول السريع الذي حدث في هذا الوقت القصير؟

الواضح من خلال النص القرآني أن النبي ﷺ كانت لديه خشية وإحساس بوجود خطر إن أُعلنت البيعة لعلي عليه السلام، بسبب وجود ظروف خاصة، يراها ﷺ في الأفق، حتمت عليه التوقف في اتخاذ القرار بشأن البيعة، لكن رغم ذلك حَسَمَ الموقف القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٥].

ولكن يبقى السؤال عن ماهية الظروف والأوضاع التي كان يراها ﷺ؟ فهل كان يرى أن القوم سوف يكذبونه في رسالته؟ أم أنهم

---

(١) كانت بيعة الغدير في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة، بينما كانت وفاة الرسول ﷺ يوم الثامن والعشرين من صفر.

(٢) كان العالم الإسلامي - آنذاك - منحصراً فيها تقريباً.

(٣) مناقب أمير المؤمنين: ٢: ٤٢٠، الامالي للصدوق: ٥٠: ح٢.

(٤) حادثة الهجوم على دار الزهراء عليها السلام.

(٥) المائدة: ٦٧.

سيرفضون هذه البيعة، ويكون هذا تكذيباً لأصل الرسالة؟ أو تكون هناك اضطرابات سياسية في المجتمع الإسلامي؟ أو غير ذلك من الأمور؟

لابد من معرفة الأمور التي كان يراها رسول الله ﷺ حينما توقف عن تحمل مسؤلية قرار البيعة، ثم جاء الأمر الإلهي، بهذه الصورة من الشدة والحزم من ناحية، وتطمين من ناحية أخرى بأن الله يعصمه من الناس.

ومن أجل التركيز على الموضوع واستيعاب ما حدث لابد من الإشارة إلى نقاط مهمة:

الانقلاب في القرآن

يشير القرآن الكريم إلى أن ظاهرة الانقلاب والتحول في المجتمعات الإنسانية ليست ظاهرة غريبة، بل يمكن أن تحدث لسبب أو لآخر، كما نلاحظ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

وهذه الآية الكريمة ليست إخباراً عن الانقلاب، وإنما هي إنكار وتوبيخ لحادثة وقعت بين المسلمين، فالقرآن الكريم يريد أن ينكر عليهم هذا الحادث وهو: إن المسلمين في أحد عندما هتف بهم الهاتف[2]، أن محمداً قتل[3] في المعركة، انقلب بعضهم على عقبه تجاه الرسالة، وأصبح

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) تذكر بعض الروايات: إن الهاتف هو إبليس، فيما تذكر روايات أخرى: إن الهاتف لبالسة الإنس..(المؤلف).

(٣) إعلام الورى: ١: ١٧٧.

لديه موقف يختلف عن موقفه قبل هذه الحادثة.

وإذا نظرنا إلى المسلمين الذين كانوا في أُحد وقسناهم بالمسلمين الذين كانوا بعد وفاة رسول الله ﷺ نرى أن وضعهم أفضل من أولئك الذين كانوا بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ لأن المسلمين في أُحد كانوا يمثلون النخبة التي آمنت برسول الله ﷺ، والتزمت بالإسلام، وقد حققت نصراً مهماً في بدر، وتعلمت أحكام الإسلام، وعرفت مفاهيمه، وهؤلاء كجماعة عامة قاتلوا في أُحد، فقتل فيهم أكثر من سبعين شخصاً، وجُرح عامة المسلمين، ومع كل هذا وقعت هذه الحادثة في صفوفهم، بحيث إن القرآن الكريم يخاطبهم بقوله: ﴿إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلُه﴾[1]، ويستعرض هذه القضية، إلى أن يصل إلى العتاب والتوبيخ والإنكار، كما هو مدلول هذه الآية الكريمة[2].

أسباب الانقلاب

إذن، فظاهرة الانقلاب التي تحدث عنها القرآن الكريم، من الممكن أن تقع، وقد وقعت في تأريخ المسلمين، ولكن لابد من معرفة الأسباب التي أدت إلى هذا الانقلاب؟

إذا توقفنا قليلاً لنتصور الجماعة والأمة الإسلامية في الفترة التي توفي فيها رسول الله ﷺ، ونتأمل في خصائصها، نجد أمامنا صورة واضحة للأسباب التي أدت إلى هذه النتائج.

هذه الأمة التي وحّدها القرآن الكريم ورسول الله ﷺ، في عقائدها

---

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) الميزان: ٤: ٢٥.

العامة، وشعائرها، كالصوم والصلاة والحج، ووحّدها في شعاراتها التي ترفعها وهي: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ﷺ، وفي طموحاتها وآمالها حتى بدأت تتحرك كأمة تعتز بوجودها وقدرتها، وتتطلع إلى غزو الدولة الفارسية والرومانية[1]- والرسائل التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك والسلاطين في ذلك الوقت، عبّر فيها عن هذه الآمال والطموحات - ومع كل هذا، يمكن أن نلاحظ في داخل هذه الأمة انقسامات ترتبط بحركتها، ومن الضروري دراسة هذه الظاهرة دراسة تحليلية واقعية كي نفهم حركة المجتمع الإسلامي آنذاك.

مكونات المجتمع الإسلامي

حينما نقف على مكونات المجتمع الإسلامي أواخر العهد النبوي، وبالتحديد بعد وفاة النبي الأكرم ﷺ نلاحظ ثمة أصناف تتبعها مواقف كانت تتحرك على الأرض، وهي:

الصنف الأول: الصفوة

كان هؤلاء يتصفون بثلاث صفات رئيسة، هي:

الأولى: الرؤية الواضحة - الخالية من الضبابية، أو الاهتزاز في فهم الأشياء ومعرفتها - لمعالم الأوضاع التي تعيشها الأمة الإسلامية آنذاك.

الثانية: التشخيص الواضح للموقف تجاه الأوضاع القائمة وقتذاك، فهم يعرفون أن الموقف هو الحركة أو السكوت، القتال أو الصبر، إلى غير ذلك من الخصوصيات التي يواجهها الإنسان عادةً في رؤيته.

---

(١) فقد دخلت في معارك مع أطراف الدولة الرومانية في مؤتة، واستعدت لدخول المعركة في تبوك..(المؤلف).

فالإنسان قد يرى أموراً واضحة، لكنه لا يعرف الموقف تجاهها، وهذا ما نبتلي به نحن في كثير من الأحيان، وابتُلي به المسلمون في كثير من الأدوار كما سوف أُشير لذلك.

لكن الصفوة الصالحة تعرف الموقف، ولذلك كان هؤلاء يراقبون موقف الإمام علي عليه السلام وينتظرون ماذا يصنع؛ لأنهم يرون أن الموقف يجب أن يؤخذ منه؛ ولذا كانوا له مستعدين لأن يتحركوا على أساس هذا الموقف.

الثالثة: الإرادة القوية، بحيث تجسد فهمها ورؤيتها للموقف، إلى عمل خارجي تتحرك على أساسه.

فمثلا أهل الكوفة في زمن الإمام الحسين عليه السلام، كانت لديهم رؤية واضحة عن الحسين عليه السلام، وعن يزيد، ويعرفون حقيقة كل منهما، وكان عندهم موقف واضح؛ لأنهم كتبوا للحسين عليه السلام أن يأتي ليستلم الأمور، وقد استجاب لهم، وبعث لهم سفيره مسلم بن عقيل عليه السلام، وأعطاهم تفاصيل الموقف وماذا يصنعون، لكنهم كانوا يفتقدون الإرادة التي يتمكنون بها أن يحولوا هذا الموقف النظري إلى عمل حقيقي، ويتحركون على أساسه لتحقيق الأهداف، رغم أنهم كانوا أقوى من أهل الشام وأهل البصرة والمدينة وأهل مكة في ذلك الوقت، وهم الأفضل؛ لأن قسماً من هؤلاء ليس عنده رؤية، وقسم آخر عنده رؤية، لكن لا يدري ما الموقف.

أما أهل الكوفة كحالة عامة، كانوا يتمتعون برؤية واضحة، لكن موقفهم كان كما تقدم.

أما النخبة في زمن وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، فكانوا أصحاب رؤية واضحة

وموقف وإرادة، لكن عددهم كان محدوداً جداً كما ورد في النصوص التاريخية لا يزيد على الثلاثين شخصاً، وبعض النصوص تذكر بأنهم ثلاثة، أو أربعة، أو سبعة، حيث ورد قوله ﷺ: ((ارتد الناس بعد النبي إلا ثلاثة نفر))[1].

والارتداد هنا يراد منه هذا النوع من الموقف؛ لأن عامة الناس لم يرتدوا عن التوحيد والنبوة، ولا عن الشعارات، ولا عن الصوم والصلاة، وإنما كان الموضوع هو هذا الموقف.

فالذين وقفوا هم هؤلاء النخبة المحدودة والصغيرة.

الصنف الثاني: المنافقون

وهم الذين يمثلون الطرف الآخر تماماً في مقابل النخبة، الذين تحدث عنهم القرآن الكريم بشكل واضح في أواخر أيام نزوله وفي بداية الأمر، كما هو الحال في سورة التوبة[2] والمنافقين، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[3].

فهؤلاء قبلوا بالحكم الإسلامي والشهادة لرسول الله والشعائر والشعارات، والحالة الإسلامية العامة التي تحكم المجتمع مكرهين، فهم في واقعهم يكذبون في هذا القبول.

وأبو سفيان مثال واضح لهذه الحالة، فعندما جاء رسول الله ﷺ

---

(١) الاختصاص: ٦.

(٢) التوبة: ٦١.

(٣) المنافقون: ١.

وأصبح على مشارف مكة بذلك الجيش العظيم، جاء أبو سفيان للعباس بن عبد المطلب، يستوضح منه الموقف المطلوب، وبعد بيان العباس له ضرورة إعلان الإسلام، والدخول فيه، والنطق بالشهادتين، وانه لا بديل عن ذلك غير هذا، أجاب العباس في نهاية حوار طويل ومعروف قد دار بينهما: (لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما)[1]. فجملته هذه

---

(١) (عن العباس) ((فقلت: يا أبا حنظلة يعني أبا سفيان، فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم، قال: لبيك فداك أبي وأمي ما ورك؟ فقلت: هذا رسول الله ﷺ ورك، قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين، قال: فما تأمرني؟ قلت: تركب عجز هذه البغلة فلستأمن لك رسول الله ﷺ، فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاردفني فخرجت أركض به بغلة رسول الله، فكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: هذا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال يعني عمر: يا أبا سفيان الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة حتى اقتحمت باب القبة، وسبقت عمر بما يسبق به الدابة البطيئة الرجل البطئ، فدخل عمر فقال: يا رسول الله ﷺ هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، دعني أضرب عنقه، فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله وأخذت برأسه، وقلت: والله لا يناجيه اليوم أحد دوني، فلما أكثر فيه عمر قلت: مهلا يا عمر، فوالله ما تصنع هذا بالرجل إلا إنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من عدي بن كعب ما قلت هذا، قال: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال ﷺ: " اذهب فقد أمناه حتى تغدو به علي بالغداة ". قال: فلما أصبح غدوت به على رسول الله ﷺ فلما رآه قال: " ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ " فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك وأرحمك وأحلمك؟ والله لقد ظننت أن لو كان معه إله لاغنى يوم بدر ويوم أحد فقال: " ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ " فقال: بأبي أنت وأمي أما هذه فإن في النفس منها شيئا، قال العباس: فقلت له: ويحك اشهد بشهادة الحق قبل أن يضرب عنقك، فتشهد، فقال ﷺ للعباس: " انصرف يا عباس فاحبسه عند مضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله " قال: فحبسته عند خطم الجبل بمدخل

تحمل دلالات كبيرة وعميقة.

فهو لا يتحمل أن يصبح محمدٌ ﷺ نبياً يملك جيشاً وقدرة وعظمة، ولم يقل: إن رسول الله ﷺ نبي، بل قال: لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً.

وعند الرجوع إلى خلفيات مقولته هذه التي تمثل رؤية طيف عريض من المجتمع المكي آنذاك نلاحظ ان هؤلاء - الذين تحول أكثرهم إلى منافقين - من الناحية الاجتماعية كانوا يمثلون طبقة لها تأثير كبير جداً على الناس، فهم رؤساء عشائر، ولهم وجاهة، وعندهم مواقع في المجتمع، ويشكلون طبقة الأشراف في المجتمع المكي، وقد شعروا أن الرسالة الإسلامية تهدد مواقعهم، فتحولوا بالتدريج إلى منافقين يعادونها بطريقة أو بأخرى، بعد أن فشلوا في محاولاتهم الأولى للقضاء على الرسالة الخاتمة، فعندئذ أظهروا الإسلام.

وإذا استنطقنا التاريخ عن أسماء المنافقين آنذاك ومواقعهم، نجد أنهم يرتبطون بهذه الجماعة، التي كان لها تأثير واضح على المجتمع آنذاك، بمعنى أن هؤلاء كانت لهم امتدادات وارتباطات، ويملكون القدرة على التخطيط والمناورة في الكلام، ولم يكونوا أناساً عاديين.

ومن هنا حاول النبي ﷺ أن يستميلهم، وهم (المؤلفة قلوبهم) ويدفع

الوادي، ومر عليه القبائل قبيلة قبيلة وهو يقول: من هؤلاء؟ ومن هؤلاء؟ وأقول: أسلم وجهينة وفلان حتى مر رسول الله ﷺ في الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد، لا يرى منهم إلا الحدق، فقال: من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار: فقال: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما، فقلت: ويحك إنها النبوة)) بحار الأنوار: ٢١ : ١٠٣.

لهم الأموال ويعطيهم المواقع، من أجل امتصاص هذه الحالة، ويحولهم بالتدريج إلى جانب الإسلام.

لكنهم كانوا يشعرون أن مواقعهم ضربت، وفقدوا استقلالهم، ولم يعد القرار بأيديهم، وإنما بيد رسول الله والشريعة، وعليهم أن يكونوا تابعين، وهذا الأمر كان يحز في نفوسهم وما كانوا يتحملونه.

وهناك أساليب اتخذتها حركة النفاق لمواجهة الرسالة، وهي:

أولاً: محاولة إسقاطها من خلال إيجاد الشكوك حول الرسالة نفسها.

ثانياً: إلقاء الشبهات حول الرسول، وهذا ما شاهدناه في المدينة عندما كانت تثار الشبهات من قبلهم حول الأحكام الشرعية، وحول القرارات الإلهية التي تأتي من الله تعالى لتنظيم الحالة الاجتماعية، وبعد ذلك توجهت عندما ثبت الحكم الإلهي، وأصبحت له قوة بحيث لا يمكن مواجهته، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تشير إلى أنهم كانوا يواجهون رسول الله ﷺ بمثل هذه الشبهات والإثارات؛ لإسقاط شخصه ﷺ.

ومن ذلك حديث الإفك[2]، وكذلك موقف الحكم بن العاص، والد مروان بن الحكم الذي كان يسخر من رسول الله ويستهزئ به، إلى

---

(١) التوبة: ٦١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٠: ٣٠٩ - ٣١٦.

مستوى أنه كان يحاول أن يقلد مشيته استهزاءً وسخرية منه[1].

وقد وصل إلى هذه الدرجة العالية من الوقاحة بحق رسول الله ﷺ، بعد أن حقق الرسول ﷺ الانتصارات؛ لأن الحكم جاء إلى المدينة بعد فتح مكة، وبعد أن أصبحت القدرة بيد رسول الله ﷺ، مع ذلك كان المنافقون يستغلون كل وسيلة من أجل الطعن بالرسول ﷺ، بعد أن عجزوا عن إسقاط الرسالة.

ثالثاً: بعد ذلك نلاحظ أن حركة النفاق تمتد إلى الطعن بمن حول الرسول، وخاصة أصحابه، ولذلك نجد أن الإمام علي والزهراء عليهما السلام كانا هدفاً رئيسياً لحركة النفاق؛ لاعتماد رسول الله ﷺ عليهما بصورة أساسية، ولاسيما الإمام علي عليه السلام الذي رشحه ثم نصبه لخلافته، فقد كان المنافقون يريدون أن يسقطوا هذا الدور للإمام علي وللزهراء عليهما السلام.

الصنف الثالث: المجاهدون والمضحون

هم الذين شاركوا مشاركة حقيقية في الجهاد مع رسول الله ﷺ، وتحملوا الآلام وقدموا التضحيات من أجل إيصال الإسلام إلى هذا المستوى المعين.

وهؤلاء أقرب الناس إلى النخبة، فمنهم من قاتل، ومنهم من جُرح،

---

(١) فقد روي عن جابر أنه قال: ((إنّ الحكم بن العاص، عم عثمان بن عفان، كان يستهزئ من رسول الله بخطوته في مشيته، ويسخر منه، وكان رسول الله ﷺ يمشي يوماً والحكم خلفه يحرّك كتفيه ويكسر يديه خلف رسول الله استهزاء منه بمشيته ﷺ، فأشار رسول الله ﷺ بيده وقال: هكذا فكن، فبقي الحكم على تلك الحال من تحريك أكتافه وتكسّر (وتكسير) يديه، ثمّ نفاه عن المدينة ولعنه، فكان مطروداً إلى أيام عثمان فردّه إلى المدينة)).
الخرائج والجرائح للراوندي: ١: ١٦٨؛ح٢٥٨.

ومنهم من أعطى أموالاً، ومنهم من شارك بوسائل أخرى، وتحمل بعضهم الهجرة إلى الحبشة، وهؤلاء نعبر عنهم بـ ((المجاهدين والمضحين)) الذين تحملوا الآلام.

وقد واجهوا قضية جديدة ترتبط بالموقف، لأن القتال كان سابقاً ضد المشركين، وأهل الكتاب والأعداء العلنيين، وأحياناً مع المنافقين، وهذه الأمور حددها لهم القرآن الكريم، أما الآن - بعد وفاة الرسول ﷺ - فيشعرون أن القضية جديدة، وهي: إن الصراع صار في داخل الجماعة المسلمة[1].

وهذه الجماعة يمكن أن نشخصها من خلال تحرك الزهراء عليها السلام على بيوت المهاجرين والأنصار، فهؤلاء هم الذين ذهبت الزهراء عليها السلام إليهم، وتحدثت معهم في بيوتهم - فلا معنى أن تذهب الزهراء عليها السلام إلى بيوت الجماعة الذين هجموا على دارها وأرادوا إحراقه، فهؤلاء قد وصل بهم الحال إلى درجة أنه لا يرجى منهم الخير، فكلام الزهراء عليها السلام كان مع

---

(١) وإذا طبقنا هذا على حياتنا الفعلية، فأنا أعرف كثيراً من المجاهدين، اشتركوا في الجهاد، وتعرضوا إلى السجون والمطاردة والهجرة، وتحملوا ألواناً مختلفة من الآلام في سبيل الله، ولكن عندما وجدوا أن الصراع في داخل الجماعة، لم يفتش أحدهم عن أن الحق مع هذا أو ذاك.

وحتى لو وجد أن الحق مع جانب، فمن الصعب عليه أن يشترك في هذا الصراع الداخلي، وإنما يقول: ما دامت القضية داخلية فنحن لا نشترك في هذا الصراع.

هذا القسم من الناس كان موجوداً في ذلك الوقت، وكان موقفهم يتسم بالحياد. نعم، هناك درجات لهذا الحياد، فأحياناً يكون حياداً إيجابياً، كأن يتكلم كلاماً بسيطاً، وأحياناً يكون حياداً مطلقاً، وأحياناً يتحول الحياد إلى اللامبالاة وعدم الاهتمام، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن أن نتصورها. ولكني أتكلم عن الحياد في الموقف ولا أقصد النيات والمشاعر والعواطف..(المؤلف).

تلك الجماعة - وعندما سمعوا كلامها وموقفها واستغاثتها، قالوا: يا بنت رسول الله، لقد فات الأوان، لو جئت في بداية القضية لكان من الممكن أن يكون لنا موقف آخر[١].

فهم يرون أن الأوضاع استقرت وتم الأمر، وإذا تحركوا فسوف يحدث صراع جديد، وانشقاقات.

الصنف الرابع: الأعراب

كان الأعراب يمثلون جمهوراً واسعاً جداً من المسلمين في ذلك الوقت. وهم الذين دخلوا الإسلام بعد الفتح، باعتباره يمثل قوة، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ◆ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾[٢].

ويصور القرآن الكريم هذه الحالة بأنها حالة مدٍ إسلامي سريع، يتحرك باتجاه الإسلام، لكنهم - الأعراب - لا يعرفون منه إلا الشعارات والعواطف المتأججة، أما الخصوصيات الأخرى كالتأريخ والمواقف، وما قاله رسول الله ﷺ تجاه موضوع الخلافة، فلا يعرفها إلاّ النخبة؛ ولذا نلاحظ أن قسماً من هؤلاء الأعراب ارتد عن الإسلام، وقسماً آخر التحق بهذه النبيّة أو ذلك النبي، بل منهم من ادعى النبوة، وشاهدنا أوضاعاً كثيرة جداً في الجزيرة العربية، باعتبار وجود هؤلاء الأعراب[٣]، وقد تحدث القرآن

---

(١) بحار الأنوار: ٤٣: ١٦١.

(٢) النصر: ١ - ٢.

(٣) الغريب أن البعض يفهم: إن الأعراب هم العرب، وهذا أمر عجيب. كان أحد الخطباء في أحد المجالس العربية الإيرانية (مجالس العراقيين من أصول إيرانية) يتحدث باللغة الفارسية، وهو رجل فاضل، ويستدل بأدلة على أن المقصود بالأعراب هم العرب، ويقول: إن تفسير الأعراب بأهل البادية غير صحيح، ومن ثم فالمراد من الأعراب العرب، والسبب في هذا

الكريم عنهم في قوله تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً﴾[١].

الصنف الخامس: الانتهازيون

وهم أصحاب المصالح، الذين كانوا يعرفون شيئاً من الدين ويلتزمون به، كما عبر عنهم الإمام الحسين عليه السلام: ((**الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا مُحِّصُوا بالبلاء قلّ الدَّيّانون**))[٢]. فهم يلتزمون بالدين بعد مصالحهم، أي: يؤمنون بالدين، ولكن بالدرجة الثانية بعد مصالحهم. فحالهم ليس كحال المنافقين الذين لا يؤمنون بالدين أصلاً، وأصحاب المصالح: أناس ذووا عقل وفهم ومعرفة

الفهم هو أنهم في اللغة الفارسية يطلقون على العرب أعراباً - ولا يقولون: «عرب» - كما نقول نحن: «أكراد» فهم أيضاً في اللغة الفارسية يقولون عن العرب: «أعراب» فعندئذ، يقول هذا الخطيب: إن العرب هم أشد كفراً ونفاقاً، وأما هؤلاء الأربعة أو الخمسة المثابتون فهم حالة استثنائية، من قبيل حالة الحواريين الذين كانوا في عهد عيسى عليه السلام.

وهذا الكلام غير صحيح، وغير منطقي، فالأعراب حالة مدنية حضارية ترتبط بالوضع الثقافي والمعرفي للجماعة، وليست حالة جغرافية، بمعنى: إن الناس الذين كانوا يسكنون خارج المدينة المنورة كان يُعبَّر عنهم بهذا التعبير؛ لأن ثقافتهم كانت محدودة، وهؤلاء كانوا يمثلون جمهور المسلمين، ويرتبطون - عادة - بالقوة، أي أن الثقافة العامة للحالة «الأعرابية» ترتبط بمسألة رئيسة وأساسية وهي: القوة، ونحن شاهدنا هذه الحالة في حركتنا السياسية في كثير من الموارد. فهذا الجمهور من الناس يرتبط بالقوة، فإذا وجدوا موازنات القوة مالت إلى جهة، ترى الوضع العام يرتبط بهذه الموازنات، وفي ضمن الإطارات العامة، فعندما يكون هناك تحرك، فهؤلاء يرتبطون بالقوة، وإذا أصبح هناك حكم ناجز، فهذا الحكم هو الذي يمثل القوة والحالة الطبيعية، فيرتبطون بها..(المؤلف).

(١) التوبة: ٩٧.

(٢) تحف العقول: ٢٤٥.

اجتماعيـة وإدارة للأمـور، ويمثلـون طبقـة في المجتمـع، ويتحركـون بإمكانيـاتهم في كـل وضـع جديـد؛ لامـتلاكهم عقـلاً وفهمـاً ومعرفـة وإمكانيـات ماديـة، فيحـاولون أن يتحركـوا ويسيطروا علـى كـثير مـن المواقف، ويكون لهم دور.

وهؤلاء كانوا جماعة موجودة في الحالة الإسلامية، وفي القرآن الكريم نجد نصوصاً كثيرة جداً تشير إليهم[1].

الصنف السادس: أصحاب الرؤى الخاصة

وهم الجماعة التي كانت لديها رؤية تجاه قضية الخلافة بعد الرسول ﷺ وهي - الرؤية - تختلف عن الموقف الإسلامي الأصيل المتمثل بموقف رسول الله ﷺ، والشواهد على ذلك كثيرة، منها: عندما صالح رسول الله ﷺ المشركين في صلح الحديبية، جاء بعض المسلمين وقال: إن هذا عمل غير صحيح[2]، وكذلك الحال عندما قسّم رسول الله ﷺ غنائم حنين[3]، على مسلمي مكة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[4].

---

(١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الحج: ١١.

(٢) فلما أجابهم رسول الله ﷺ إلى الصلح أنكر عامة أصحابه وأشد ما كان إنكارا فلان فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ فقال: نعم، قـال: فنعطـي الذلة (الدنية ح) في ديننا قال: إن الله قد وعدني ولن يخلفني قال: لو أن معي أربعين رجلا لخالفته. تفسير القمي: ٢: ٣١١.

(٣) مجمع البيان: ٥: ٣٦.

(٤) التوبة: ٥٨.

فهؤلاء ليسوا أصحاب مصالح، ولا أعراباً، ولا منافقين، ولا انتهازيين، وإنما كانت عندهم رؤية في مسألة الخلافة الإسلامية.

فإذن، كان هناك أُناس عندهم رأي في مقابل رأي رسول الله ﷺ، وهذا الذي نعبر عنه أحياناً بـ ((الاجتهاد في مقابل النص))، ونريد بهذا التعبير أن نخفف الحالة، فنحاول أن نعطيها صبغة علمية، لكن واقع الحال - مع غض النظر عن تفسيراتها وأسبابها وخصوصياتها - هو أن هؤلاء الناس كان عندهم رؤية في مقابل رسول الله ﷺ.

الحرية السياسية

المعروف أن رسول الله ﷺ كان رجلاً مسيطراً على الأوضاع، مع قطع النظر عن اعتقاد الأمامية واعتقاد بقية المسلمين بارتباطه ﷺ بالغيب، فهو ﷺ كقائد أحدث تغييراً عظيماً، وكان مهيمناً ومسيطراً، فمن غير المعقول أن لا يكون عارفاً بتفاصيل مجريات الأحداث السياسية التي كانت تحدث في الساحة الإسلامية.

ومع ذلك لم يتخذ ﷺ أي عمل قمعي ضد مناوئيه، وذلك لأنه لا يوجد في النظرية الإسلامية قرار يتخذ أسلوب القمع لأي عمل، لمجرد أنه عمل سياسي، ما دام المسلم يرفع شعار الإسلام: (لا إله إلاّ الله وان محمداً رسول الله)، فله - الفرد المسلم - حرية التحرك من الناحية السياسية ما لم يرفع سيفاً، ويستخدم القوة في مقابل النبي ﷺ حتى لو كان هذا العمل حراماً ومداناً من الناحية الشرعية، ومخالفاً لطاعة الله وطاعة رسوله. وقد جسد أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته هذا الأمر، حيث كان عليه السلام يعرف الحركات السياسية المضادة، ولكنه لم يستخدم العنف ضدهم، إلاّ حينما رفعوا السيف في وجهه، كالخوارج.

وقد كان رسول الله ﷺ يعرف الكثير من المنافقين الذين يتحركون هنا وهناك في حركات سياسية، وكان يدينهم ويخالفهم، وقد تحدث عنهم القرآن الكريم، وبيّن: إن هؤلاء منافقون، في قلوبهم مرض ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1].

وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام عندما خرج طلحة والزبير عليه عليه السلام بجيشهما، واستولوا على البصرة وبطشوا بواليها، ونهبوا الأموال، عندئذ استخدم السلاح ضدهم، رغم أن حركتهم كانت مكشوفة ومعروفة للإمام علي عليه السلام، وقد صرح لهما بذلك في قوله عليه السلام لهما ((ما العمرة تريدان وإنما تريدان الغدرة))[2]، وكان بإمكانه أن يعتقلهما ويسجنهما، لكن رغم كل هذا لم يتخذ أي إجراء ضدهم.

وهذه المسألة كان يفهمها القوم، فاستفادوا منها في تنفيذ مخططهم، الذي كانوا يسعون إليه منذ فترة من الزمن.

مؤشرات الانحراف

إن محاولة إقصاء الإمام علي عليه السلام من منصبه لم تكن حدثاً طارئاً، وإنما لها جذور في مسيرة الأوضاع السياسية التي كان يعيشها المسلمون، ومن جملة المؤشرات على هذه الحقيقة:

أولاً: أصل بيعة الغدير التي تمت بعد نزول آية البلاغ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

---

(١) البقرة: ١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١: ٢٣٢.

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[١] والتي تضمنت التهديد من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ مع أن القرآن الكريم هو الذي وصف الرسول ﷺ بالطاعة والإخلاص والتفاني في سبيل الله[٢]؟ فقد كان ﷺ مخلصاً في أداء الرسالة دون تلكّؤ طيلة السنين السابقة، وقولته المعروفة: ((**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك**))[٣] تؤكد هذا النوع من التصميم في مسيرته، وآية البلاغ نزلت في أواخر حياته ﷺ، وليس أولها.

ثانياً: تخلف القوم وإصرارهم على عدم الالتحاق بجيش أسامة، مع إصرار النبي ﷺ على إرسال هذا الجيش في ذلك الوقت الحرج الذي كان يعيشه ﷺ، وأيضا محاولة اغتيال الرسول ﷺ في أيامه الأخيرة[٤].

ثالثاً: موضوع الدواة والقلم، حيث إن رسول الله ﷺ أصر على أن يكتب أمراً هاماً في أخر حياته الشريفة، فطلب دواةً وقرطاساً ليكتبه لهم

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) ﴿طه • مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى • إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾. طه:١ و٢.

(٣) شرح نهج البلاغة:١٤: ٥٤.

(٤) في قوله تعالى: " يحذر المنافقون" قيل: نزلت في اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل عليه السلام رسول الله بذلك، وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم، وعمار كان يقود دابة رسول الله ﷺ وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى نحاهم، فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت من القوم فقال: لم أعرف منهم أحدا، فقال رسول الله ﷺ: إله فلان وفلان حتى عدهم كلهم، فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم. بحار الأنوار: ٢١: ١٩٦ .

فكان موقفهم منه هو الرفض[1] وغير ذلك من المؤشرات التي يمكن أن نستفيدها من التأريخ، والتي تدلل على وجود عمل منظم ومبرمج، وله جذور يريد أن ينتهي إلى إقصاء علي بن أبي طالب عليه السلام عن موقعه

---

(١) عُرفت هذه الحادثة في التأريخ الإسلامي بـ ((رزية يوم الخميس))، فقد ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: ((ثم لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، قال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط، قال: قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع، فخرج ابن عباس يقول: إن الرزيئة كل الرزيئة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه))، البخاري: ١: ٣٧، باب كتابة العلم.

وفي البخاري أيضاً أن ابن عباس قال: ((ثم يوم الخميس، وما يوم الخميس، اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟ أستفهموه، فذهبوا يردون عليه فقال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه))، البخاري: ٤: ٦٦ ، باب مرض النبي ووفاته.

وفي البخاري أيضاً: ((عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثم لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي ﷺ: هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال عمر: إن النبي قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله....)) البخاري: ٥: ١٣٧، باب قول المريض قوموا عني.

وفيه أيضاً أن ابن عباس قال: ((إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم))، البخاري: ٧: ٩، باب كراهية الاختلاف.

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، أنه قال: ((ثم يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم جعل تسيل دموعه حتى رأيت على خديه كأنها نظام اللؤلؤ، قال: قال رسول الله ﷺ: ائتوني بالكتف والدواة (أو اللوح والدواة) أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبداً، فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجرا))، صحيح مسلم: ٥: ٧٦، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه.

الحقيقي.

إذن فالقضية لم تكن فجائية، وإنما لها جذور، غاية الأمر أن بعض القضايا لا تظهر على السطح مباشرة وبوضوح عالٍ.

الإجراءات الوقائية

بذل رسول الله ﷺ قبل وفاته جهداً كبيراً، واستخدم كل الوسائل الممكنة والمتيسرة من أجل تنصيب الإمام علي عليه السلام خليفة له في الواقع الخارجي، وعدم الاكتفاء بتنصيبه من جهة الحكم التشريعي وإبلاغ المسلمين بذلك كما يبلغهم بالأحكام، وإلاّ فإبلاغهم بخلافته عليه السلام كحكم شرعي قد بيّنه منذ أن التقى بعشيرته ودعاهم إلى الإسلام، فقال هناك في علي عليه السلام: ((**أنت وصيّي وخليفتي من بعدي وأنت وزيري**))[1].

بل بيّنها ﷺ في مقامات كثيرة، لكنه في الأيام الأخيرة من حياته، ولعله البداية لهذه المرحلة الجديدة كانت معركة تبوك، فاتخذ ﷺ موقفاً جديداً وقرر جعل خلافة الإمام علي عليه السلام قضية خارجية واقعية، وليست قراراً وتشريعاً سنّه الله سبحانه وتعالى، وكلف به رسوله ﷺ فحسب، وإنما يجعله قضية خارجية تأخذ موقعها ومجراها في الواقع الخارجي، فخلفه رسول الله ﷺ على المدينة[2].

---

(١) روى حديث الدار جملة من المحدثين والمؤرخين، منهم الإربلي في كشف الغمة: ١: ٦٢،، تأريخ الطبري: ٢: ٦٢ - ٦٣. كنز العمال: ١٣: ٥٨، برقم: ٣٦٤١٥، باختلاف يسير في ألفاظها.

(٢) ((خلف رسول الله ﷺ علياً في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله تخلفني بعدك؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)). بحار الأنوار: ٢١: ٢٣٣ .

ثم أخذ رسول الله ﷺ يتخذ خطوة بعد أخرى لبيان هذا الأمر، فكانت قضية الغدير وتنصيبه ﷺ لعلي عليه السلام، وأخذ البيعة من المسلمين ليجعل هذه القضية أكثر إلزاماً، وكان ذلك بأمر إلهي: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ**﴾[1] وكذلك إخراج كبار الصحابة والشخصيات المهمة من المدينة في جيش أسامة[2].

ثم محاولته ﷺ أن يجعل علياً عليه السلام يقيم الصلاة في مقامه عند مرضه، وبعدها محاولته ﷺ أن يكتب كتاباً لن يضلوا بعده، يبين فيه هذه الحقيقة فقال: ((**هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**)) لكن بعض الحاضرين كانت عنده رؤية في مقابل رؤية رسول الله ﷺ - وهذا الأمر ينص عليه كل المؤرخين، وحتى الصحاح المعتبرة[3]- إما لأنهم ما كانوا يرون أن هذا وحي، أو كانوا يرونه وحياً، ولكنه في جانب، وهذه أمور بشرية في جانب آخر، أو كانوا يحتملون السهو والخطأ على رسول الله ﷺ، وإلى غير ذلك من الاحتمالات.

والنتيجة: إن هؤلاء كانوا يخططون، وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ يرشح علياً عليه السلام وكان هذا الموضوع واضحاً قُبيل معركة تبوك، بحيث إن الأمة الإسلامية أصبحت قوية، تريد أن تدخل في معركة مع الروم، والناس كانوا يخافون أن يقتل رسول الله ﷺ في هذه المعركة؛ لأنها مع الروم، وجيش الروم قوي، ووجدوا أن رسول الله ﷺ الذي

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) بحار الأنوار: ٢٨: ١٠٧.

(٣) حديث الكتف والدواة، أو ما أسماه ابن عباس: «رزية يوم الخميس»، من الأحاديث المشهورة التي وردت في البخاري ومسلم وغيرهما.تقدم ذكره في هوامش سابقة.

كان يُبقي في المدينة ابن أم مكتوم، وهو رجل ضرير وعاجز عن القتال، وإذا به يغير موقفه ويترك علياً عليه السلام في المدينة، وفي هذه القضية المهمة قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))**[1].

فأصبح سعي النبي صلى الله عليه وآله الجاد في استخلاف علي عليه السلام للخلافة أمرا واضحا لا غبار عليه؛ ولذا بدؤوا يتحركون بقوة، حتى أنهم خططوا لاغتيال الرسول صلى الله عليه وآله في تبوك، كما ذكر ذلك التأريخ[2].

---

(١) فضائل الصحابة: ١٤ و صحيح مسلم: ٧: ١٢٠.

(٢) مرفوعا إلى أبي الأسود عن عروة قال: **((لما رجع رسول الله صلى الله عليه وآله قافلا من تبوك إلى المدينة حتى إذا كان ببعض الطريق مكر به ناس من أصحابه، فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق أرادوا أن يسلكوها معه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله خبرهم، فقال: من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله العقبة، وأخذ الناس بطن الوادي إلا النفر الذين أرادوا المكر، به استعدوا وتلثموا وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه مشيا، وأمر عمارا أن يأخذ بزمام الناقة، وأمر حذيفة بسوقها، فبينا هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه، فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر حذيفة أن يراهم، فرجع ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم وضربها ضربا بالمحجن، وأبصر القوم وهم متلثمون، فرعبهم الله حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعوا حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما أدركه قال: اضرب الراحلة يا حذيفة، وامش أنت يا عمار فأسرعوا فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس، فقال النبي صلى الله عليه وآله: يا حذيفة هل عرفت من هؤلاء الرهط أو الركب أحدا؟ فقال حذيفة: عرفت راحلة فلان وفلان، وكان ظلمة الليل غشيتهم وهم متلثمون، فقال صلى الله عليه وآله: هل علمتم ما شأن الركب وما أرادوا؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا أظلمت بي العقبة طرحوني منها، قالوا: أفلا تأمر بهم يا**

وهناك شواهد كثيرة جداً وواضحة، ولا ريب فيها من الناحية التاريخية، تثبت وجود جماعة تخطط لتكون الخلافة من بعد رسول الله غير التي أرادها القرآن الكريم، وكما كان يريدها ﷺ، وهذا يفسر لنا توقفه ﷺ عن اتخاذ القرار الحاسم في إعلان الخلافة لعلي عليه السلام وجعلها قضية عملية خارجية يوم الغدير، فهو كان ﷺ على علم بما يخطط له القوم؛ ولذا حاول ﷺ التوسل بكل السبل المتاحة من أجل تهيئة المناخ المناسب وجعل الظرف السياسي مُهيأً لتقبل خلافة علي عليه السلام، إلاّ أنه لم يستخدم أسلوباً واحداً، وهو إلقاء القبض على أولئك المتهمين بمحاولات الانقلاب، والقيام بعمل ما تجاههم، كأن يسجنهم أو يقتلهم أو ينفيهم، فهذا الإجراء المادي الخارجي لم يتخذه.

لقد كانت هناك جماعة مستعدة لأن تقوم بأي عمل من أجل تنفيذ رأيها، وكانت عندهم رؤية عبروا عنها بقولهم: ((لا والله لا تجتمع النبوة والخلافة في أهل بيت واحد))[1].

وقد قال الخليفة الثاني لابن عباس: صحيح أن ما فعلناه كان على خلاف موقف رسول الله، لكن الناس ما كانوا مستعدين أن يقبلوا بخلافة ابن عمك[2]، أي: نحن رأينا أن نحفظ المصلحة الإسلامية العامة

رسول الله إذا جاءك الناس فتضرب أعناقهم؟ قال: أكره أن يتحدث الناس ويقولون: إن محمداً قد وضع يده في أصحابه، فسماهم لهما ثم قال: إكتماهم))

بحار الأنوار: ٢١: ٢٤٧.

(١) بحار الأنوار: ٣٦: ١٥٧: ح ١٣٦.

(٢) قال - الأول - : ((يا ابن عباس أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمد؟ فكرهت أن أجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة

بهذا القرار، إلى غير ذلك من التفسيرات.

وهناك الكثير من الشواهد[1]، ومن خلالها تصبح عند الإنسان قناعة تامة بوجود هذه الرؤية لدى القوم.

حسم الموقف

وإذا شاهدنا هذه الصورة ومن خلال القرائن التي بيّناها، نرى أن

والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحا بجحا، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت، فقالت: يا أمير المؤمنين إن تأذن لي في كلام وتمط عني الغضب تكلمت فقال: تكلم يا ابن عباس فقالت: أما قولك يا أمير المؤمنين، اختارت قريش لنفسها فأصابت ووفقت، فلو أن قريشا اختارت لنفسها حيث اختار الله عز وجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأما قولك إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة، فإن الله عز وجل وصف قوما بالكراهية فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فقال عمر هيهات، والله يا ابن عباس قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفرك عنها، فتزيل منزلتك مني، فقالت: وما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقا فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلا فمثلي أماط الباطل عن نفسه فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنا حسدا وظلما، فقالت: أما قولك يا أمير المؤمنين ظلما فقد تبين للجاهل والحليم، وأما قولك حسدا، فإن إبليس حسد آدم فنحن ولده المحسودون: فقال عمر: هيهات أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلا حسدا ما يحول وضغنا وغشا ما يزول، فقالت: مهلاً يا أمير المؤمنين لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا بالحسد والغش، فإن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من قلوب بني هاشم، فقال عمر: إليك عني يا ابن عباس، فقالت: افعل فلما ذهبت لأقوم استحيا مني، فقال: يا ابن عباس مكانك فوالله إني لراع لحقك محب لما سرك، فقالت: يا أمير المؤمنين إن لي عليك حقا وعلى كل مسلم فمن حفظه فحظه أصاب ومن أضاعه فحظه أخطأ ثم قام فمضى)). تاريخ الطبري: ٣: ٢٨٩.

(١) نحن لا نقول ولا ندعي: بأن كل رواية صحيحة، ولكن مجموع هذه الروايات يدعو إلى الاطمئنان بوجود قرار ورؤية لدى جماعة من الناس كانوا يخططون لهذا الأمر..(المؤلف).

انحراف الخلافة وما تلاها من مظالم كانت طبيعية جداً؛ لأن المنافقين إذا أرادوا الاصطفاف في هذه العملية فلا يصطفون مع علي عليه السلام، ذلك لأنه يمثل امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وآله في كل شئ، بل هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم عندهم موقف من رسول الله ومن النبوة والإيمان ومن كل شيء.

وإذا أتينا إلى طائفة الانتهازيين، فإنهم إذا أرادوا أن يصطفُّوا سياسياً، فلا يصطفُّون مع الإمام علي عليه السلام؛ لأنه لا يحقق مصالحهم.

فمثلا كان أبو سفيان خارج المدينة، ولما رجع إلى المدينة ورأى الأوضاع متغيرة، استغرب وقال: ما هذا الكلام؟ وكيف يصبح هذا خليفة[1]؟ ولماذا لا أكون أنا؟ وحاول الدخول في هذه القضية من خلال الوضع الانتهازي ليكسب المكاسب، فجاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقال له: أنت صاحب القضية، وقد قال عنك رسول الله كذا وكذا. ثم قال متمثلاً[2]:

إن الهوانَ حمارُ الأهلِ يعرفُه ... والحُرُّ يُنكِرُهُ، والرِّسْلَةُ الأُجُدُ[3]

ولا يُقيـــم على ضيم يُرادُ بِه ... إلا الأذَلّانِ: عير الحيِّ والوَتَدُ

هذا على الخَسفِ معكوسٌ برمّتِه ... وذا يُشَجُّ فلا يبكي له أحـدُ[4]

لكن علياً عليه السلام لم يوافق، وكان موقفه واضحاً، فهو لا يتعامل مع أيٍّ من هؤلاء الانتهازيين؛ لذا فإن الاصطفاف الطبيعي لهؤلاء سوف يكون مع الجانب الآخر.

---

(١) إشارة إلى أبي بكر.

(٢) الأبيات للمتلمس، وهو أحد كبار شعراء الجاهلية.

(٣) الرِّسْلَة: الجماعة. والأُجُد: القوية.

(٤) راجع: تأريخ الطبري: ٢: ٤٤٩. شرح نهج البلاغة: ١: ٢٢١ - ٢٢٢. وعنه البحار: ٢٨: ٣٢٨: ح٥٤. باختلاف يسير.

وأما الأعراب فسوف يصطفون بطبيعة الحال مع ذلك الجانب أيضاً؛ لأنهم يتأثرون بالقوة، وفي الجانب الآخر توجد قوة وقدرة، فمن يتكلم يُضرب على رأسه، وأول معالم القوة أبدوها في السقيفة، فسعد بن عبادة شيخ الخزرج، وهو: شخصية كبيرة جداً، وعنده عشيرة، وليس شخصاً مقطوعاً كبلال أو صهيب مثلاً، وإن كان لهؤلاء كرامتهم واحترامهم، لكن من الجانب الواقعي قد يختلف بلال وصهيب عن شيخ الخزرج، الذي سحقوه في السقيفة، وتمكن أصحابه أن يخلصوه بصعوبة[1] فإن كل من يتكلم فهم مستعدون للوقوف بوجهه.

لذا فإن الهجوم على بيت الزهراء كان يعبر عن هذه القوة، وهؤلاء القوم كانوا قد أتوا بجماعة ورتبوا أوضاعهم، وخططوا من أجل أن يعبروا عن هذه القوة والقدرة.

وأما أصحاب الرؤى الخاصة فأمرهم محسوم، فبقي المجاهدون المؤمنون الصالحون، الذين لديهم موقف حيادي، هذا الموقف الذي يدعو له أصحابه دائماً في أوساطنا السياسية، ويرى نفسه أنه قد قام بعمل عظيم جداً!! ولذلك فالزهراء عليها السلام خاطبت هؤلاء وحملتهم المسؤلية.

وإذا حسبنا حساباً دقيقاً، نجد أن أولئك مستعدون، ولكن سكوتهم كان سببا في انحراف المسيرة، وبالتالي وقع الظلم على الزهراء عليها السلام.

ولذلك عندما نتحدث عن الزهراء عليها السلام، نجد أن هناك بطولة وملحمة من ملاحم التأريخ البشري، عندما تقف وحدها عليها السلام والذي يشبه موقف

---

(١) تأريخ الطبري: ٢: ٤٤٥ - ٤٤٧.

إبراهيم عليه السلام، الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[١]، فلم يكن معه إلا زوجته ولوط عليه السلام، لكنه وقف أمام البشرية كلها، برسالة التوحيد.

وكذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وآله في بداية الدعوة عندما وقف أمام البشرية صادحاً: ((قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا))[٢]، ولم يكن معه من الناس إلا زوجته وأمير المؤمنين عليه السلام وأبو طالب، وهو الوحيد القادر على حماية النبي صلى الله عليه وآله[٣].

وكانت النتيجة أن اجتمع القوم في سقيفة بني ساعدة، واتخذوا القرار في أن يكون الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله شخصاً آخر، وجعلوا علياً أمام الأمر الواقع.

كان أمام أهل البيت عليهم السلام عدة خيارات:

الخيار الأول: الدخول في صراع مسلح مع الجماعة التي استلمت الحكم بطريقة استخدام القوة والعنف، وكان من الممكن أن يجمع علي عليه السلام أنصاره، ويخطط لاستلام الحكم.

---

(١) النحل: ١٢٠.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ١: ٥٥، مسند أحمد: ٣: ٤٩٢.

(٣) كان موقف أبي طالب صلباً في إسناد النبي صلى الله عليه وآله، عندما جاء إليه القوم وقالوا: ماذا يريد هذا من عندنا؟ إن كان يريد ملكاً ملّكناه، وإن كان يريد نساءً أعطيناه، وإن كان يريد أماناً منحناه، فليترك تسفيه أحلامنا ونحن نعطيه كل شيء.

فجاء أبو طالب وتحدث مع رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الحديث، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: **((والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك))** فليس عنده حديث آخر، وإنما عنده تصميم على الاستمرار في هذه العملية إلى نهايتها..(المؤلف).

الخيار الثاني: التسليم بالأمر الواقع، كما نشاهد ذلك من الإمام علي عليه السلام في خلافة عمر عندما نصبه أبو بكر، وكما نلاحظ ذلك في خلافة عثمان عندما عيّن عمر الستة للشورى وأمرهم أن يختاروا واحداً، فقبل الإمام علي عليه السلام ذلك، واشترك معهم في الاجتماع، وكانت نتائج هذا الاجتماع معروفة.

وحتى في تصدي الإمام علي عليه السلام للخلافة بعد عثمان، عندما جاءه المسلمون واجتمعوا عليه، وتوسلوا به، وضغطوا عليه لكي يقبل الخلافة، فسلّم إلى الأمر الواقع وقبلها.

الخيار الثالث: المقاومة السلمية: وهو الذي اختارته الزهراء عليها السلام، ولا شك أنه كان بموافقة الإمام علي عليه السلام، وبالتعاون معه، فاختارت هذا الخيار وتحملت مسؤليته وخططت له.

محاكمة الخيارات

الاحتكام إلى القوة

أما الخيار الأول، فقد قال المؤرخون: إن علياً عليه السلام إنما لم يختره؛ لأنه لم يجد أنصاراً يقوم بهم في مقابل هذه الجماعة، ولا يبعد أن يكون الأمر كذلك، ولكن هناك احتمال آخر، هو: إنه عليه السلام كان من الممكن أن يجد أنصاراً لو اتبع الأساليب السياسية المعروفة، في جمع الأنصار وجذبهم بتقسيم المنافع والمصالح والمواقع، بإعطاء موقع لهذا وذاك، فيمكنه بهذا أن يجد أنصاراً يصل بهم إلى الحكم، وبعدها يبدأ بعمليات تصفية جسدية لمن يخالفه في مشروعه، كما نشاهد ذلك في هذا العصر.

ويدعم هذا التصور أمور:

أولاً: إن بني هاشم من الأساس كانوا مع علي عليه السلام.

ثانياً: مجيء أبي سفيان - صاحب الموقع والنفوذ المهم - إلى الإمام علي عليه السلام وعرض إمكانياته وقدراته عليه، وكان من الممكن للإمام علي عليه السلام لو كان يتبنى هذا النوع من التعامل، أن يكسب الكثير من الأعراب الذين دخلوا في الإسلام حديثاً، والذين كانوا يلهثون وراء المنافع والمواقع، لكنه عليه السلام كان مبدئياً في سلوكه بالإضافة إلى انه يعلم جيداً لو اتبع هذا الطريق، فقد يؤدي هذا الأمر إلى انتكاسة للإسلام تقضي عليه، أو تجعله رسالة ضعيفة، بحيث لا يمكنه أن يحقق أهدافه كرسالة خاتمة تعم الدنيا وتستمر إلى يومنا الحاضر، فيتحول إلى حالة شبيهة بالحالة التي تحولت لها اليهودية، ويصبح محدوداً بجماعة معينة من الناس، والباقي يبقون على الوثنية والكفر.

ومع غض النظر عن تفسير الاحتمال الأول والثاني، فأن الاحتمال الثاني أرجح، والمؤرخون يذكرون الأول، وقد يكون صحيحاً، لكن علياً عليه السلام لأحد هذين الاحتمالين، أو لهما معاً، لم يختر الخيار الأول ويدخل في مواجهة مسلحة مع هذا الوضع الجديد. ولو كان المنهج المطلوب والوظيفة الشرعية المعينة من الله سبحانه وتعالى - آنذاك - يتطلب استخدام السلاح والقتال، لكان من المفروض أن يتصدى له الإمام علي عليه السلام، بل وأول من يتصدى لهذه العملية، ويقود مثل هذه المعركة، ولا شك أن هناك مجموعة من الناس كانوا على استعداد لأن يخوضوا هذه المعركة معه، ولو كانت هذه المجموعة تعد بالأصابع[1]. لكن

---

(١) وأنا في تحليلي السياسي، أرى أنه كان يمكن أن يكون العدد أكبر من هذا بكثير، وكان بإمكان الإمام علي عليه السلام أن يحصل على أصحاب بعدد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام.

نرى جلوسه وسكوته عن المواجهة المسلحة إشارة إلى أنه كان يرى أن الموقف ليس القتال، إن لهذا الموقف - الجلوس والسكوت - تفسيراً وتحليلاً أوسع وأعمق وله مجال آخر، لكن بشكل إجمالي لو تصدى الإمام عليه السلام للقتال لحدث انشقاق كبير بين المسلمين، وقد يؤدي هذا الانشقاق إلى أن يصبح أصل الدين موضع تهديد وخطر، بحيث يرتد الناس عن الإسلام، باعتبار أن الظروف السياسية التي كانت محيطة بالجزيرة العربية فيها قلق سياسي وعدم استقرار، وقد تؤدي هذه القضية إلى كارثة تهدد أصل وجود الشريعة. وهو يعلم أنه عليه السلام لو أراد أن ينتهج القتال، فقد لا يتغلب عليه الآخرون، لكنه قد لا يتمكن أن يسيطر على الأوضاع بشكل كامل، ويصبح الدين وأصل الكيان الإسلامي في معرض الخطر، ولذلك وجد أن الأولى والأهم هو المحافظة على الكيان الإسلامي، وأن يسكت ولا يتصدى للمواجهة. وكان القوم يعرفون رد فعل الإمام علي عليه السلام، فإنه بحسب رؤيته السياسية، وتحليله ووظائفه لم يكن له رد الفعل باستخدام القوة والعنف؛ حفظاً للمصالح العامة للإسلام وتقديما لها على المصالح الخاصة ذات العلاقة بأوضاعه

وهذه المسألة لها بحث آخر من الناحية التاريخية، ولكن مما لا شك فيه أن هناك مجموعة من الناس كانت على استعداد لأن تقاتل مع الإمام علي عليه السلام، من قبيل سلمان، فهو قائد من قادة الحرب في فتح العراق، وكان له دور عظيم في فتح العراق، فبعد عشرة سنوات من هذه الحادثة، نجد أن سلمان يقود معارك عسكرية في فتح العراق. وهكذا الحال مع عمار بن ياسر، ذلك المقاتل الذي كان له دور عظيم جداً في صفين، والمقداد بن الأسود، كان على استعداد أن يقوم بهذا العمل، وأبو ذر والزبير، وهكذا حذيفة بن اليمان، وبعض النصوص تذكر أسماء متعددة، ومثل هؤلاء لهم جماعة من الموالين يمكن أن يشتركوا في هذه العملية..(المؤلف).

وشؤونه.

وهذا ما كان معروفاً في التأريخ بما يسمى بـ((الوصية)) وهي: إن النبي ﷺ أوصى الإمام علي عليه السلام بأن لا يتحرك، ولا يكون له رد فعل، وقد أشار الإمام إلى ذلك بقوله عليه السلام: ((**ووالله لأسلّمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلاّ عليّ خاصة**))[1].

التسليم بالأمر الواقع

والخيار الثاني لم يكن صحيحاً أيضاً؛ لأن قضية الخلافة والولاية ليست قضية عادية - كما يحاول البعض أن يصورها - فنصوص أهل البيت عليهم السلام من ناحية، والنص القرآني في تنصيب علي عليه السلام في بيعة الغدير: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾[2]، من ناحية أخرى، يدلان على أن الخلافة أمر مهم؛ لأنه لو لم يبلّغ الرسول ﷺ هذا الأمر ويترتب بحسب الواقع، فيعني انه لم يبلغ الرسالة بأكملها.

إذن، فالخلافة لها هذه الدرجة من الأهمية.

والنص المروي عن الإمام الباقر عليه السلام فيه بيان لهذه الأهمية، قال: عليه السلام ((**بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية**))[3].

وفي رواية أخرى، بعد أن بيّن عليه السلام الأركان التي قام عليها الإسلام من قبيل الصلاة والزكاة. قال: ((**الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهن والوالي**

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦: ١٦٦.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) الكافي: ٢: ١٨: ح١.

هو الدليل عليهن))[1].

فالولاية لها هذه الأهمية الخاصة، ولا يمكن في مقابل تعرضها لهذا النوع من الضرر أن يسلّم الإمام علي عليه السلام للأمر الواقع، ويقبله كقضية خارجية.

نعم، لو كانت الولاية شأناً من الشؤون الأخرى، كفدك مثلاً لكان من الممكن أن يسمو عن هذا المال، كما قال عليه السلام: ((..**بلى كانت في أيدينا فدك.. فشحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس قوم آخرين.. وما أصنع بفدك وغير فدك..**))[2]، لكن الولاية حق لا يمكن له أن يسمو عنه، ويغض النظر ويتنازل.

ونقصد بالولاية الولاية التي وضعها الله سبحانه وتعالى في الرسالة الإسلامية، وأراد من خلالها أن يدار المجتمع الإنساني، من خلال الوالي الذي يتولى أمور المسلمين وتتمركز عنده السلطات الثلاثة: التشريعية، والتنفيذية، والقضائية.

صفات الوالي

وحتى لا يتجه الوالي أو الحاكم إلى الدكتاتورية والاستبداد والطغيان فلابد من ضمانات، كي يكون حاكما شرعيا ومفوضا من قبل الله سبحانه وتعالى، وهي أن يكون متصفا بعدة مواصفات:

الصفة الأولى: أن يكون عالما.

الصفة الثانية: أن يكون عادلا.

---

(١) الكافي: ٢: ١٨: ح٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٦: ٢٠٨.

الصفة الثالثة: حسن الولاية، كما عُبر عنها في الحديث الشريف، وما يعبر عنه في المصطلحات السياسية الحديثة: الخبرة والدراية بالأمور السياسية.

عندما يتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء ولزوم اتصافهم بالرشد ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾[1] يراد من ذلك الحكمة كما يعبر عنه أحيانا في أتيناه الحكمة ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[2].

إن هذا الحاكم ومن يدير العملية الاجتماعية ويقودها، لابد أن يكون متصفا بمثل هذه المواصفات، وأشير إلى بعض النصوص التي وردت في هذا المجال من قبيل، ما ورد عن رسول الله ﷺ ((إذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا في حسن عقله، فإنما يجازى بعقله))[3] أي: من حَسُنَ عقله قد يكون متقيا صالحا، ولكن ليس له القدرة على إدارة الأمور، فإنما يجازى الإنسان من الله سبحانه وتعالى بعقله.

وما ورد عن الإمام علي عليه السلام عندما تحدث عن الخلافة وعن الصراع الذي وقع بينه وبين طلحة والزبير وعائشة من ناحية، والصراع الذي وقع بينه وبين معاوية من ناحية أخرى، وبعد وقوع التشكيك في إمامته من قبل الخوارج بعد قضية صفين، تحدث الإمام علي عليه السلام عن قضية الولاية ومواصفاتها وذكر فيما ذكر: ((**أيها الناس، إن أحق الناس بهذا**

---

(١) الأنبياء: ٥١.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

(٣) الكافي: ١: ١٢: ح٩.

الأمر أقواهم عليه))[١] أي: الذي يكون هو الأقوى على إدارة هذا الأمر، هو أحقهم به، فلا يكتفي أن يكون عنده دراية وخبرة، بل لابد أن يكون الأقوى فيهما.

كذلك ما ورد عن الإمام علي عليه السلام في قوله من شروط الحاكم أن يكون: **((اعلم الناس بحلال الله وحرامه وضروب أحكامه وأمره ونهيه:** إلى أن يقول: **فيحتاج الناس إليه ويستغني عنهم))**[٢]، أي: يكون بدرجة من الغنى بحيث إن الناس يكونون بحاجة له في إدارة شؤونهم وهو لا يحتاج إلى أحد منهم.

كذا ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام انه قال: **((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم))**[٣] وفي نص آخر، عن الإمام الصادق عليه السلام قال في صحيحة العيص بن القاسم، وهي رواية معتبرة وصحيحة، قال: **((وانظروا لأنفسكم - يخاطب أصحابه وأتباعه وشيعته - فوالله إن الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي - وضع فيها راعي - فإذا وجد رجلا هو اعلم بغنمه من الذي هو فيها يخرجه ويجيء بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها))**[٤].

الإنسان العادي هكذا يصنع فكيف الحال بمثل الولاية التي هي رعاية

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٩: ٣٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ٢٥: ١٦٥عن تفسير النعماني.

(٣) الكافي: ١: ٤٠٧:ح٨.

(٤) الكافي:٨: ٢٦٤: ح٣٨١.

هؤلاء الناس وشؤونهم؟!

وما ورد أيضا عن الإمام زين العابدين قوله: ((إذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديه وتمارت في منطقه وتخاضع في حركاته فرويدا لا يغرنكم، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب المحارم منها لضعف نيته ومهانته وجبن قلبه، فنصب الدين فخا لها، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره، فان تمكن من حرام اقتحمه، وإذا وجدتموه يعف عن المال الحرام فرويدا لا يغرنكم فان شهوات الخلق مختلفة، فما أكثر من ينبو عن المال الحرام، وإن كثر ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها محرما، فإذا وجدتموه يعف عن ذلك فرويدا لا يغرنكم حتى تنظروا ما عقده عقله فما أكثر من ترك ذلك أجمع ثم لا يرجع إلى عقل متين، فيكون ما يفسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله، وإذا وجدتم عقله متينا فرويدا لا يغرنكم حتى تنظروا مع هواه يكون على عقله، أو يكون مع عقله على هواه، وكيف محبته للرياسات الباطلة وزهده فيها، فان في الناس من خسر الدنيا والآخرة بترك الدنيا للدنيا، ويرى أن لذة الرياسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والنعم المباحة المحللة، فيترك ذلك أجمع طلب للرياسة - إلى أن قال - ولكن الرجل كل الرجل نعم الرجل هو الذي جعل هواه تبعا لأمر الله، وقواه مبذولة في رضاء الله، يرى الذل مع الحق أقرب إلى عز الأبد من العز في الباطل - إلى أن قال - فذلكم الرجل نعم الرجل فيه فتمسكوا، وبسنته فاقتدوا، وإلى ربكم به فتوسلوا، فانه لا ترد له دعوة، ولا تخيب له طلبة))[1].

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت): ٨: ٣١٨:١٤ .

وأيضا عن أبي جعفر الباقر عليه السلام انه قال: ((**إنما يداق الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا**))[1] فالحساب إنما يكون على العقل والخبرة السياسية.

إذن، فأحد الضمانات المهمة هو أن يكون الحاكم خبيراً في إدارة شؤون الناس، وخبيرا في معرفة المصالح من المفاسد، ومعرفة الأولويات في هذه المصالح، فقد تكون هناك مجموعة من المصالح مهمة، وقد تكون ضرورية وواجبة، ولكن لا يمكنه الجمع بينها مرة واحدة، فلابد أن يكون الأعرف فيما هو أولى منها إذا تضاربت، فيميز الأهم من المهم منها.

هذا النوع من الخبرة لابد أن يكون متوفرا في هذا الحاكم حتى يكون مؤهلا لهذه الولاية، هذه الصفات التي تشكل ضمانة في الحاكم، ونرى أن كل هذه الصفات متوفرة في الإمام علي عليه السلام وليست عند غيره.

المقاومة السلمية

فليس إذن أمام الإمام علي عليه السلام إلاّ الخيار الثالث، وهو خيار المقاومة وتثبيت هذه القضية أمام المسلمين كحق يبقى قائماً بين الناس إلى أن يظهر ذلك الإنسان العظيم، الذي أعده الله سبحانه وتعالى ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

وإذا تصدى علي عليه السلام بنفسه لهذا الأمر، فلا يجد أمامه إلا الخيار الأول، لأنه إذا تصدى فلا خيار له إلا أن يقاتل، كما صنع الإمام الحسين عليه السلام فيقتل حينئذ، أو يتحقق ذلك الخطر الكبير، وهو: تفكك المجتمع الإسلامي، وضعف الدولة الإسلامية أمام الوثنية.

---

(١) **الكافي**: ١: ١١: ح٧.

ومن هنا يمكن أن نفهم هذه الحوادث واحدة بعد الأخرى، فلم يكن الإمام علي عليه السلام ولا سلمان ولا المقداد أو عمار أو الزبير، ولا أي واحد ممن اجتمعوا في بيت علي عليه السلام وتعاهدوا معه، لم يكن لهم أن يتصدّوا لهذه القضية؛ لأن معنى التصدي حمل السلاح والقتال، فالعملية ليست سلمية وسياسية، وعملية انتخابات، وإنما كانت استخدام القوة، فقد فرض هذا الموضوع بالقوة.

حركة الزهراء عليها السلام

تمهيد

إن الحق الذي وقفت فاطمة الزهراء عليها السلام تدافع عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، كان الدور الرئيس في إثباته وبقائه - من خلال رؤيتنا للتأريخ، ومن خلال ما حدث في الخارج - هو موقف الزهراء عليها السلام، حيث لم يكن لأي شخص في ذلك الوقت وتلك الظروف أن يقف هذا الموقف، حتى الإمام علي عليه السلام ذلك العظيم الفريد الذي يتميز بالصفات الخاصة، وذلك الشجاع المتفاني والمضحي، الذي يملك أعلى درجات الإخلاص والفناء لله سبحانه وتعالى، إلى غير ذلك مما يتصف به، حيث كانت الظروف السياسية والأوضاع القائمة في ذلك الوقت لا تسمح له أن يقف الموقف الذي يُثبت فيه هذا الحق.

ومن هنا يمكن أن نعرف لماذا برزت الزهراء عليها السلام في هذه المعركة، ولم يبرز الإمام علي عليه السلام.

الزهراء تتصدر المواجهة

إن المعركة التي خاضتها الزهراء عليها السلام كانت لإثبات الحق وبيانه، ولو لاحظنا تفاصيل قضية الزهراء عليها السلام لرأيناها كلها تصب في إثبات هذا الحق، من موقفها وراء الباب، ومنع القوم من دخول البيت، ثم بعد ذلك تحملها كل المصائب والآلام والمحن، إلى إصرارها على مواصلة هذا الطريق للدفاع عن علي عليه السلام والمحافظة عليه، حتى اضطر القوم أن يتركوا علياً في قضية البيعة لأبي بكر.

ويكاد يكون هناك إجماع لدى المؤرخين من أن علياً عليه السلام لم يبايع، غاية الأمر أنهم يفسرون ذلك - عدم البيعة - كان إرضاءً لفاطمة عليها السلام؛ لأنها كانت

غير راضية بهذه البيعة؛ ولذا بايع بعد وفاتها.

وعلى كل حال فالإمام علي عليه السلام لم يبايع في المرحلة الأولى، بإجماع المؤرخين، وهذا الموقف لم يكن لعلي عليه السلام أن يقفه لولا وجود فاطمة عليها السلام، ودفاعها واستعدادها للتضحية من أجل عدم البيعة، وهذا الحق لا يمكن إثباته لولا وجودها عليها السلام. وهو يكشف عن موقفها عليها السلام الصامد والثابت من الحق.

وهكذا مواقف فاطمة عليها السلام بعد ذلك، في خطبها وأحاديثها واستدلالها على الحقائق، والحال أن علياً عليه السلام كان الإنسان الأول بعد النبي صلى الله عليه وآله في بلاغته، ومعرفته بالحقائق الإلهية، وبأحكام الشريعة، وهذا يشهد به جميع المسلمين، فعلي عليه السلام كان أعلم الصحابة وأقضاهم، حتى أن عمر كان يعترف بهذه الحقيقة[1]، ومع كل هذا فلم يُؤثَر عنه عليه السلام أنه تحدث عن هذا الأمر أمام المسلمين.

نعم، قد تكون له أحاديث في هذا المجلس أو ذاك، ولكن لم تكن له خطب وأحاديث كفاطمة عليها السلام، فهذا البرنامج لا يستطيع أن ينفذه غير فاطمة عليها السلام.

ثم بعد ذلك قضية وفاتها ودفنها وإخفاء قبرها، كل هذه الأمور عندما تجمتع تشكل قضية واضحة أُريدَ منها إثبات الحق، وبيان الحقيقة للتأريخ الإسلامي، بحيث تبقى ناصعة واضحة بينة لا يمكن لأحد أن يتجاوزها أو يتجاهلها في التأريخ الإسلامي؛ ولذلك نجد أن قادة السقيفة لا يتجاهلونها، وإنما يحاولون أن يدوروا ويلتفوا حولها، ويقدموا تفسيرات

---

(١) قال ابن عباس، قال: ((قال عمر: أقضانا علي)) الطبقات الكبرى: ٢: ٢٣٩، سير أعلام النبلاء: ١: ٣٩١.

وتأويلات بطريق أو بآخر، لكن أصل القضية التي جاهدت الزهراء عليها السلام من اجلها كانت واضحة وبينة وثابتة في التأريخ الإسلامي.

وهذا جانب مهم في قضية إحياء ذكراها عليها السلام؛ ولذلك فإن أهل الحق - أولئك الذين يلتزمون بمنهج أهل البيت عليهم السلام ويرتبطون بهم - مدينون لسيدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام في الوصول إلى هذه الحقيقة.

الأبعاد الرسالية للتحرك

الزهراء عليها السلام ليست شخصية عادية، وإنما هي سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين، وابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وقد كان لها دور عظيم في حياة المسلمين، فهمومها ليست هموماً ذاتية، وإنما همٌ إسلامي عظيم؛ ولذا إحساسها عليها السلام وشعورها بالمسؤلية ليس كغيرها، وعندما رأت بأمّ عينيها أن المسيرة الإلهية اتجهت باتجاه آخر، أحست بالخسارة العظيمة التي نزلت بالمسلمين، ومَن يقرأ خطبتها[1]، ويدقق فيها، يرى أنها عليها السلام تفجر ألماً لما سيؤول إليه مصير الإسلام والمسلمين؛ ولذا كانت عليها السلام تركز على جانب رئيس في خطابها السياسي التغييري، وهو: لو أنّ علياً عليه السلام قاد الحكم والمسيرة - بما عُرف من إخلاصه وعدله وصموده وصبره - لجعلها تسير على الخط التكاملي، كما قال سلمان: ((لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم))[2]، وكما عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

---

(١) دلائل الإمامة: ١١١.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩: ٧٩ - ٨٠: ح١.

﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

وهذه المظلومية لا تُدركها إلا الطبقة العالية الرفيعة من الناس، وهم: الزهراء والأئمة عليهم السلام، فهم الذين يدركون هذا المضمون، وهم مستعدون للتضحية بكل شيء ليدفعوا هذا النوع من المظلوميات[٢].

ولذا نجد أن الزهراء عليها السلام قد التزمت الخط الذي يحول المظلومية إلى قوة وعمل ونشاط وأطروحة وهدف، وهذا ما صنعه الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام في مجمل حركتهم.

الغطاء الشرعي للتحرك

عندما ندرس حركة الزهراء عليها السلام والظروف التي واجهتها، نلاحظ أنها شبيهة بالظروف التي واجهها الإمام الحسين عليه السلام؛ وذلك لان المسلمين واجهوا ظروفاً جديدةً في نقض البيعة التي أخذها رسول الله صلى الله عليه وآله من المسلمين من ناحية، ووجود حكومة جديدة تمكنت من تسلُّم الحكم بطريقة أو أُخرى من ناحية ثانية، وأصبحت هي الحاكمة.

ففي مثل هذه الظروف واجه المسلمون إشكالية حقيقية تتلخص في أنه هل يجب على المسلمين أن يبايعوا الحكومة الجديدة، أو لا يجب عليهم ذلك؟ وإذا كان لا يجب، فهل يجوز لهم المبايعة، أو يحرم عليهم ذلك؟

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) هذه الظلامات قد تعرضت لها الزهراء عليها السلام وتعاملت معها وجعلتها منطلق قوة كما سوف نشير، والناس - بشكل عام - عندما يتعرض أحدهم لمظلومية يستسلم ويصبر ويتحول إلى حالة الحزن والبكاء والنحيب، وبعضهم يتحول إلى حالة من الجزع والخروج عن الموازين والضوابط الشرعية، نتيجة لتعرضهم إلى هذا النوع من المظلومية، فلا يدافع عن نفسه، وإنما تصبح عنده حالة من الجزع والانفلات..(المؤلف).

هذا كان موضع شك لدى جماعة كبيرة من المسلمين.

ومن جملة أسباب الشك - أيضاً -: وجود أحاديث صدرت عن رسول الله ﷺ قد توهم التسليم والبيعة في مثل هذه الحالة. هذا على مستوى عامة المسلمين.

وهنا كان الواجب الأولي، يلقى على عاتق الإمام علي عليه السلام - باعتباره الإمام الذي يتحمل مسؤليات - بيان الحكم الشرعي وتشخيصه، لكنه عليه السلام بسبب ظروف خاصة تقدمت الإشارة إليها لم يكن قادراً على بيان هذا الموضوع؛ لأن بيانه يؤدي إلى تخلخل عظيم جداً بين المسلمين. فقامت الزهراء عليها السلام بهذا الواجب الشرعي، انطلاقا من تحملها للمسؤلية الشرعية والعقائدية[1] حيث إن موقفها عليها السلام يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هنا يمكن ان نفسر الاهتمام البالغ من قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام بقضية الزهراء كاهتمامهم بقضية الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك اهتمام شيعتهم ومحبيهم بقضية الزهراء عليها السلام كاهتمامهم أيضا بقضية الإمام الحسين عليه السلام لارتباط شهادتهما بقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما أن موقفهما يرتبط ببعد عقائدي مهم وأساسي، وهو الدفاع: عن الإمامة، والإمامة قضية عقائدية مبدئية ذات علاقة بالرسالة الإسلامية وخصائصها وامتيازاتها التي تميزت بها عن باقي الرسالات العقائدية.

---

(١) ومن هنا نفهم انه يمكن للمرأة أن تتحمل المسؤلية في المواقف السياسية العامة، كما يتحملها الرجل، بل قد تقوم بعمل لا يمكن للرجل أن يقوم به، عندما تكون له ظروف خاصة تمنعه عن القيام بهذا العمل..(المؤلف).

أهداف التحرك

الأهداف التي كانت تسعى إليها الزهراء عليها السلام، والتي أدت إلى مظلوميتها، لم تأتِ من فراغ، وإنما كانت بسبب موقف وقفته عليها السلام، فلو لم تتحرك الزهراء عليها السلام باتجاه أهداف محددة - كما سوف نشير إليها - وجلست في بيتها وقالت: أنا ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، واستسلمت للأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت قائمة في ذلك الوقت، لكان من الممكن أن تُعامل معاملة جيدة؛ لأنها ابنة رسول الله، بل كان من الممكن أن تتميز على بقية الناس، فتحصل على المال والاحترام.

خصوصاً وان بعض الخلفاء الذين جاؤوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله قد سن مثل هذه السنة، فجعلوا الناس مراتب وطبقات في مقام المعاملة والاحترام ودفع الأموال:

الطبقة الأولى: علي والحسنان عليهما السلام.

الطبقة الثانية: زوجات النبي والمرتبطون برسول الله صلى الله عليه وآله.

الطبقة الثالثة: المهاجرون الأولون.

وهكذا أخذوا يصنفون المجتمع طبقات، وكان من الممكن أن تستفيد الزهراء عليها السلام من هذا الوضع السياسي والاجتماعي، لو لم تتحرك.

فإذن، هناك أهداف مهمة تحركت الزهراء من اجلها، تفيدنا في فهمنا للعمل السياسي والحركة السياسية في عصرنا الحاضر، وهي:

الهدف الأول: عدم شرعية السقيفة

إن ما جرى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في السقيفة لم يكن أمراً شرعياً.

فالزهراء عليها السلام كانت تعرف أن دخولها المعترك السياسي بمثابة عملية

استشهادية[1]، وسوف لا تصل إلى تغيير الموقف والوضع السياسي الموجود آنذاك.

ولكنها مع ذلك سعت إلى قضية مهمة جداً فيها جانب يمثل الوظيفة الشرعية، وبيان الموقف الشرعي وتوضيحه، سواء استجاب الناس لها أم لم يستجيبوا.

ولم يكن لأي شخص آخر غير الزهراء عليها السلام القيام بهذا الأمر حتى الإمام علي عليه السلام الذي امتنع عن البيعة، ولولا الزهراء عليها السلام لقتل الإمام عليه السلام، ولعُفّي هذا الأمر في التأريخ، كما قُتل غيرُه في ذلك الوقت، واعتُبِرَ هذا القتل شرعياً صحيحاً؛ لأن من يخرج على جماعة المسلمين يكون حكمه الشرعي القتل، وهذا خروج على الجماعة؛ لأن الناس كلهم بايعوا، ومن ثم يُقتل هو وكل من كان معه، وتنتهي المسألة بهذه الطريقة. لكن موقف الزهراء عليها السلام سجل هذا الحكم الشرعي وثبته تثبيتا عملياً وواقعياً وسياسياً في التأريخ، فلولا هذا الموقف لكان من الممكن أن يكون الأمر مشكوكاً، حتى لجماعة أهل البيت عليهم السلام، ووجدنا أن هناك تساؤلات تصدر حتى من داخل جماعة أهل البيت عليهم السلام، حيث قيل: هل من الممكن أن يقف المسلمون هذا الموقف، وينصرفوا عن الشريعة، وعن رأي رسول الله صلى الله عليه وآله وعن موقفه، ثم يسكتوا عن الأمر ولا يقاوموا؟

---

(١) أصبح هذا المصطلح في هذه الأيام من المصطلحات المعروفة في الإعلام والسياسة، فعندما يقوم الإنسان بعمل ويرى من ورائه الموت الحتمي فهذا يعبر عنه بأنه عمل استشهادي، فيما إذا كان الهدف من وراء هذا العمل صالحاً ومشروعاً، وأما إذا كان الهدف غير صالح فهو الانتحار..(المؤلف).

إذن سوف تبقى هذه الشكوك والأسئلة قائمة في نفوس كثير من الناس، فلولا الزهراء عليها السلام لبقيت مثل هذه الأسئلة في نفوس عامة الناس، ولا يكون لجماعة أهل البيت عليهم السلام أيُّ منطق مقابل هذه القضية؛ لأن النصوص قابلة للتأويل والتفسير على خلاف ظاهرها.

ولكن هذا الموقف من المواقف التي لا يمكن التعتيم عليه، وحتى البخاري الذي يعتبر متشدداً في الحديث، ولا يذكر نصوص البيعة، فعندما يذكر قصة فالزهراء عليها السلام لا يخفي هذه الحقيقة، فيقول: إنها ماتت وهي غاضبة على أبي بكر[1].

وهذه مسألة واقعية وحقيقية؛ لأن شخصية الزهراء عليها السلام معروفة، وموقفها لا يمكن التعتيم عليه؛ ولذا أصبح لهذه القضية منطق وأساس، ويمكن لجماعة أهل البيت عليهم السلام أن يستندوا إلى النصوص، التي سوف تصبح واضحة جلية بهذا الموقف الاستشهادي لفاطمة الزهراء عليها السلام.

الهدف الثاني: حماية الرسالة من التحريف

لقد واجهت الزهراء عليها السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مشكلة تحريف الرسالة الإسلامية على مستوى التطبيق عندما أزاحوا الأمر عن علي عليه السلام، وفي بداية الأمر لم تكن قضية الانحراف واضحة للمسلمين، ولذلك تقاعسوا بصورة عامة، وتهاونوا.

---

(١) البخاري:٤: ٤٢، ((فغضبت فاطمة بنت رسول الله فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرته حتى توفيت)) ومثله في الجزء الخامس في الصفحة ٨٢ والجزء الثامن في صفحة ٣. وكذا في كتاب: الإمامة السياسة: ١: ٣١.

إن الانحراف يبدأ بطبيعته غير منظور في البداية، لكنه عندما يستمر يكون التباعد بين الخطين كبيراً؛ لأن الخروج عن الخط المستقيم قد لا يبدو واضحاً أول الأمر، لكنه عند الاستمرار يوماً بعد آخر تزداد الفجوة، والبعد يكون واضحا؛ لذا فإن المسلمين لم يشعروا به في بداية الأمر، لكن عندما استمر - الانحراف - بدا واضحاً، فبعد خمسة وعشرين عاماً تقريباً من بداية الانحراف، وجدنا المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يتحركون لمواجهته في مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، مع قطع النظر عن كل الملابسات والتحليلات التي لا نريد الدخول في تفاصيلها.

لقد وجدنا أن المسلمين في كل مكان من العالم الإسلامي، من الكوفة والحجاز ومصر واليمن وغيرها، يتحركون إلى المدينة ليصحّحوا هذا الانحراف؛ لأنه أصبح واضحاً جداً.

لقد كانت الرسالة أيام النبي ﷺ تسير في مسار طبيعي، وقد تكون هناك أخطاء وعثرات واشتباهات في مجال التطبيق، لكن لم يكن ذلك منه ﷺ وإنما من الأجهزة والمسؤليات الموزعة على الناس في ذلك الوقت، لكن الرسالة بشكل عام كانت تسير في الطريق الصحيح، وهذه العثرات والمطبّات والفجوات هي غير الخروج عن أصل المسير.

وقد كانت الزهراء ﷺ منذ البداية تشعر أن الرسالة تتعرض إلى ظلامة، بل إلى أعظم ظلامة عند إخراجها عن مسارها الطبيعي في الجانب التطبيقي. والخطبة التي ألقتها ﷺ في آخر أيامها - التي كانت تتحدث فيها عن هذه الظلامة - دليل على ما ندعيه.

إن الزهراء عليها السلام تمكنت من خلال حركتها إثبات هذه الحقيقة في تأريخنا الإسلامي، ولولا موقفها لكان من الممكن أن تزوّر هذه الحقيقة، بحيث تصبح مجهولة.

وليس هذا أمراً غريباً في التأريخ الرسالي، فنحن نعرف أن الكثير من الرسالات الإلهية تعرضت إلى التحريف والتزوير، بحيث اختفت معالم الحق بصورة كاملة في مجاهل التأريخ وظلماته، فلولا موقف الزهراء التضحوي الذي أدى إلى استشهادها، لكان من الممكن أن يذهب هذا الحق مع التأريخ.

ومن الممكن أن لا تعرف جماعة المسلمين الحكم الشرعي، لكن ثبات الحق وبقائه واستمراره إلى يومنا الحاضر كان بفضل موقف الزهراء عليها السلام.

أما الإمام علي عليه السلام فلم تكن ظروفه تسمح له أن يقوم بهذه المهمة لتثبيت الحق، بل كان من الممكن أن يقتل، ويبرر هذا القتل بعملية التزييف، وليس موقف الإمام علي عليه السلام كموقف الإمام الحسين عليه السلام، باعتبار أن الإمام الحسين عليه السلام تمكن أن يوجد له قاعدة - وهذا بحث أشرنا له في كتابنا عن الإمام الحسين - تثبت هذا الحق بعد مقتله، وذلك من خلال الإمام زين العابدين عليه السلام وزينب عليها السلام، والقاعدة الشعبية التي تمكن أن يوجدها لحركته.

أما الإمام علي عليه السلام فلم تكن لديه هذه القاعدة، وإنما كانت لديه عناصر محدودة، من الممكن أن يُقضى عليها جميعا وينتهي الأمر، ويزيّف التاريخ الإسلامي الأصيل، وتختفي الحقيقة عن الأجيال اللاحقة وتمحى من التأريخ الإسلامي.

الهدف الثالث: كشف الوجه الحقيقي للحكم

كشف الزيغ والضلال في الأوضاع التي كان يعيشها الحكم آنذاك كان هدفا للزهراء عليها السلام؛ لأن مشكلة الحكم لم تكن في البيعة لأبي بكر، ونقض البيعة لعلي عليه السلام، وإنما كانت هناك مجموعة من المخالفات الأساسية التي بدأت، منها: الحوادث التي أطروها تحت عنوان الارتداد، والتي قُتل فيها عدد كبير جداً من خيرة المؤمنين، حتى أن عمر بن الخطاب احتج على أبي بكر احتجاجاً شديداً في حادثة مالك بن نويرة التي كانت تحت عنوان الردة[1].

وقد تمكنت الزهراء عليها السلام - من خلال أحاديثها وخطاباتها في مسجد النبي صلى الله عليه وآله، وبعد ذلك في أحاديثها مع المهاجرين والأنصار، ولاسيما مع نسائهم[2]، واستمرارها في هذا الموقف - أن تكشف الكثير من معالم الزيغ والضلال والانحراف في هذه الحركة، وشكلت على الحاكم ضغطاً كبيراً، بحيث حاول استرضاؤها في النهاية.

الهدف الرابع: خلق روح المقاومة

تمكنت الزهراء عليها السلام من غرس روح المقاومة في نفوس المسلمين، وإيجادها عندهم، وقد رعاها بعد ذلك الإمام علي والأئمة عليهم السلام من بعده. إذن فالزهراء عليها السلام كان لها هذا الفضل على المسلمين قاطبة.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١: ٣٧٧ ، وتاريخ الطبري: ٢: ٥٠٣.

(٢) ((أيها بني قيلة أأهضم تراث ابي وانتم بمرأى مني ومسمع وقيد ومجموع، تلبسكم الدعرة، وتشملكم الخبرة، وانتم ذا العدد والعدة، والإرادة والقوة وعندكم السلاح والجنة، وتوافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتاتيكم الصرخة فلا تغيثون))، بحار الأنوار: ٢٩: ٢٢٨ .

الهدف الخامس: حماية أمير المؤمنين عليه السلام

المحافظة على شخص الإمام علي عليه السلام، فلولاها عليها السلام لكان من الممكن أن يقتل أمير المؤمنين - كما تقدم - تحت شعار الانشقاق عن الحكم ورفض البيعة، فقد رووا عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال: ((**فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائناً من كان**))[1]، ولازال هذا النص حياً في بعض الروايات التي لا زال القوم يروونها في صحاحهم، وكان من الممكن أن يطبق هذا الحكم على الإمام علي عليه السلام، ويقتل تحت هذا الشعار، وتنتهي القضية بهذه الصورة. هذه هي الأهداف الرئيسة التي كانت وراء حركة الزهراء عليها السلام، وهذه الأهداف تستحق التضحية الكبيرة التي ضحتها الزهراء عليها السلام، وأدت بها إلى الشهادة.

وقد أثير قديماً سؤال يقول: لماذا عرضت الزهراء عليها السلام نفسها للأذى والمصيبة ولها هذا الموقع الخاص؟ فهل كانت هناك قضية كبيرة تستحق أن تعرض الزهراء عليها السلام نفسها - بجلالها وعظمتها وعلمها وفضلها - إلى مثل هذه الآلام؟

فإذا نظرنا إلى ما تقدم من أهداف ندرك أن هناك قضية كبيرة تستحق كل هذه التضحية.

الموقف الرسالي

إتسم موقف الزهراء عليها السلام منذ بداية حركتها الجهادية وحتى استشهادها بموقف الثبات والاستقرار والطمأنينة والاستقامة الكاملة، دون تزلزل، وهذا أمر مهم في العمل الجهادي، وتأثيره ووصوله إلى نتائجه وتحقيق أهدافه، كما أشارت الآية القرآنية لذلك: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ**

---

(١) صحيح مسلم: ٦: ٢٢.

﴿اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

فالنص القرآني يشير إلى أن الاستقامة في الموقف والاستمرار عليه إلى النهاية هو الذي يحقق النتائج والآثار المهمة.

لقد عانت الزهراء عليها السلام المظلومية آنذاك، حيث كان الحصار مفروضاً عليها إلى حد يمكن أن يقال: كانت عليها السلام وحدها ولا يوجد أحد من الناس معها، وان كان بعض المؤرخين يذكر أرقاما لكنها محدودة جداً فيقول: كان العدد أربعة مثلاً، وبعضهم يزيد فيقول: سبعة، ولا يوجد من يزيد على ثلاثين شخصاً. ورغم هذا فقد واجهت الزهراء عليها السلام الآلام والمحن بنفسها.

أما الآن فالأمة تعتقد وتؤمن بها عليها السلام، وتسير بسيرتها وترى صحة موقفها، وهذا بُعد مهم جداً في الجانب الجهادي للزهراء عليها السلام، فالجهاد موقف، وليس مجرد نشاط وفعل يقوم به الإنسان، كأن يقاتل فيقتل ويستشهد أو يتحمل الآلام، إنما الجهاد يعبر عن رؤية لهدف معين وواقع سياسي قائم، وموقف تجاه الواقع من أجل تغييره.

مناهج البحث التاريخي

يشكل العدوان على الزهراء عليها السلام ظاهرة من الظواهر التاريخية[2]، الجديرة بالبحث والدراسة، وقد وردت في مختلف الكتب التاريخية، لكن

---

(١) فصلت: ٣٠ - ٣١.

(٢) حيث إن الكتب التاريخية حافلة بأحداث وتفاصيل هذه المظلومية على الرغم من سعي بعض المؤرخين في بذل محاولات جادة من اجل إخفائها أو التخفيف منها.

بعض هذه الكتب تتحدث عن مصادرة فدك وحرمانها من الإرث[١]. والبعض الآخر يتحدث عن الهجوم على دارها لأخذ البيعة من علي عليه السلام[٢] أو في لطمها عليها السلام على وجهها[٣] والبعض يتحدث عن قضية الباب وكسر الضلع[٤] وما جرى عليها عليها السلام، أو عن قضية إسقاط المحسن[٥] وبعضها يتحدث عن حرمانها عليها السلام من البكاء على أبيها[٦]، أو عن إيذائها، إلى غير ذلك من النصوص التي وردت في مقام التعبير عن هذه الظاهرة.

ولا شك أن الهدف من التحليل التاريخي وإثبات الظاهرة التاريخية إنما يترتب على إثبات أصل العدوان والظلم، أما أن هذا العدوان وقع

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٦: ٤٦، ذكر أمر فاطمة مع أبي بكر، البخاري: ٤: ٤٢.

(٢) قال ابن قتيبة: ((إن أبا بكر تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجنّ أو لأحرقنها على من فيها، فقيل له: يا أبا حفص، إن فيها فاطمة! فقال: وإن، فخرجوا فبايعوا إلاّ علياً... فوقفت فاطمة رضي الله عنها على بابها فقالت: لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضراً منكم))، الإمامة والسياسة: ١: ٣٠ راجع أيضاً: أمالي المفيد: ٤٩، كشف المحجة للسيد ابن طاوس: ٦٢، الطرائف للسيد ابن طاوس: ٢٣٩، أعلام النساء: ٣: ١٢٠٧.

(٣) الاختصاص: ١٨٥، بيت الأحزان: ١٢٦، مجمع النورين: ١٢٣ وغيرها من المصادر.

(٤) كتاب سليم بن قيس: ١٥٣، الإقبال: ١٦٦، بيت الأحزان: ١١٥، وغيرها من المصادر.

(٥) السقيفة أم الفتن للدكتور الخليلي: ٧١، نقلاً عن المسعودي في إثبات الوصية، وشرح نهج البلاغة: ١٤: ١٩٣ وغيرها.

(٦) أمالي الصدوق: ٢٠٤، والخصال: ٢٧٣: ح١٥، وروضة الواعظين: ١٧٠.

ضمن هذا المصداق، أو بهذه الصيغة أو تلك، فهذا بحث يرتبط بجانب من البحث التاريخي، حيث يوجد في البحث التاريخي جانبان من الحديث:

الجانب الأول: يرتبط بمفردات الحوادث التاريخية، بحيث نأخذ الحوادث التاريخية حادثة حادثة بخصوصياتها، وظروفها وصيغتها المعينة، ونحاول أن نثبتها أو ننفيها.

وهذه الطريقة يتبعها الفقهاء - أحياناً - عندما يريدون أن يثبتوا كلاماً أو موقفاً للنبي ﷺ أو المعصوم عليه السلام، وهو ما يعبر عنه أحياناً بـ (الإمضاء)[1] لأن الإمضاء له مداليل فقهية.

وإذا أردنا أن نلتزم بهذا المنهج، في محاولة لإثبات النصوص التأريخية، عن طريق الرواة الموثوقين والمعتمدين، الذين وردت في شأنهم شهادات من علماء الرجال المعتمدين، بأن هؤلاء رواة ثقات.

فقد لا نجد أمامنا محصلة تأريخية مهمة؛ لأننا نجد قليلاً من النصوص التأريخية تتوفر فيها ضوابط هذه الطريقة. وحتى تلك النصوص المعتمدة والمعروفة في التأريخ، والمتداولة بين الناس - بصورة عامة - قد لا تتوفر فيها الشروط المطلوبة لإثباتها بهذه الطريقة، أي: الطريقة التي يعتمدها الفقهاء في إثبات النصوص الفقهية، التي يستدلون بها على الأحكام الشرعية.

ومن ثمّ فقد يؤدي هذا الطريق في معالجة الحوادث التأريخية إلى نفي

---

(١) الإمضاء: الإجازة والموافقة، يقال: أمضيت بيعي ومضيت على بيعي أي أجزته. لسان العرب: ١٥: ٢٨٤. فإذا واجه المعصوم سلوكا معينا وسكت، فهذا السكوت له دلالة على الإمضاء والموافقة على ذلك السلوك والعمل الخاص.

التأريخ بأكمله، وتصبح النتيجة هي الشك والريب في كل الحوادث التأريخية التي بين أيدينا. ولذلك نجد المؤرخين عندما يريدون أن يدونوا ويثبتوا حادثة من الحوادث التأريخية لا يعتمدون هذا الطريق وهذا المنهج، وإنما يفترضون إن ذكر الحادثة في الكتب التأريخية المعروفة، التي ألفها المؤرخون القدماء - أمثال اليعقوبي الذي يعتبر أقدم المؤرخين، والطبري[1] الذي يأتي بعده من حيث الأهمية والقدم - كافياً لإثبات الحادثة التأريخية.

نعم، هناك جزء محدود جداً من التأريخ دوّنه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ودونه غيرهما من أصحاب المسانيد بهذه الطريقة، بناءً على صحة هذه المسانيد عند أصحابها، وبمقدار ما ورد في هذه الكتب، وكذلك ما ورد في كتب علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام، من قبيل: الكليني، والصدوق قدس سرهما، وهي نصوص يتصف القليل منها بالصحة، إذا أردنا أن نتحدث عن الصحة بمعناها الأصولي والفقهي المتبع في النصوص الفقهية.

وعلى هذا الأساس، نجد أن المؤرخين - بصورة عامة - عندما يريدون أن يثبتوا حدثاً تأريخياً بصيغته التأريخية يعتمدون على الكتب التأريخية المعروفة، ويفترضون أن هذا القدر من ذكر الحدث في هذه الكتب يكفي لإثباتها على مستوى التأريخ المدون، وعلى هذا الأساس ينتهون إلى الالتزام بأن التأريخ لا يحتاج إلى ذلك البحث المعمق على مستوى السند،

---

(١) الطبري وإن كان قد ذكر أسانيده عند ذكر الحوادث التأريخية، وقد أخذ منه ابن الأثير بصورة عامة، وهكذا الحال في ابن عساكر وأمثالهما، إلاّ أن هذه الأسانيد ضعيفة بصورة عامة..(المؤلف).

كما هو الحال في الفقه، الذي من خلاله يمكن إثبات الحكم الشرعي.

نعم، يتبعون منهج التحليل التأريخي في المقارنة بين الروايات، ومضمون الحوادث والاتجاهات السياسية والاجتماعية القائمة.

وبناءً على ذلك، يمكن أن نقول: إن المنهج العام المتبع في معرفة الحوادث التأريخية إذا أردنا أن نطبقه على الروايات التي وردت في الزهراء عليها السلام، نجد أن أكثر النصوص التي وردت في الثناء على الزهراء عليها السلام يمكن إثباتها تأريخياً على مستوى البحث التأريخي المعتمد في المصادر التأريخية، وعلى مستوى المصادر التاريخية المعتمدة، كذلك يمكن إثبات ما ورد في مظلومية الزهراء عليها السلام، حيث إن أكثر ما جرى على الزهراء عليها السلام من آلام وحوادث يمكن إثباته على هذا المستوى من البحث التأريخي[1].

الجانب الثاني: هو الجانب الذي يراد منه الوصول إلى نتائج في فهم التأريخ وتحولاته، مع قطع النظر عن التفاصيل الموجودة في هذا النص أو ذاك، وإنما يراد من هذا البحث تحليل الظواهر والأحداث التأريخية العامة، والوصول إلى رؤية لفهم التأريخ، وفهم التحولات التأريخية، وترتيب الأحكام والآثار على هذه التحولات، وهذه طريقة أُخرى من البحث.

وهي من الطرق العلمية المعتمدة في الأبحاث الأصولية والفقهية[2]،

---

(١) هذا جانب من الحديث، وهو حديث فيه الكثير من التفاصيل، ولا يمكن استيعابه بهذه العجالة..(المؤلف).

(٢) ويعبر عنها: بالتواتر في حالة القطع بصحتها، والاستفاضة في حالة الاطمئنان، ويذكرون أن التواتر والاستفاضة ليسا مختصين في نقل أمور محددة ومعينة فقط، وإنما هناك تواتر واستفاضة في معنى عام مشترك ومستفاد من النصوص يعبر عنه في بعض الأحيان: بالتواتر المعنوي والاستفاضة المعنوية، وفي بعض الأحيان بالتواتر الإجمالي والاستفاضة الإجمالية.

لأنها تودي في كثير من الحالات إلى القناعة، التي يمكن أن نعبر عنها بالاطمئنان بوقوع الحدث التأريخي كظاهرة وحالة عامة، دون الجزم بالتفاصيل والجزئيات.

ولكن قد لا يمكن إثبات هذا الموضوع أو ذاك على مستوى اليقين في الجانب الأول من البحث التأريخي، إنما يمكن إثباته على مستوى البحوث التاريخية العامة، وطبق المنهج المتبع لدى المؤرخين، وعلى مستوى اليقين والاطمئنان يمكن إثبات أصل العدوان والمظلومية، وبمنهج التحليل التاريخي، وهذا منهج مهم جداً في التأريخ.

ومن خلال هذا يمكن استعلام معالم العدوان عليها عليها السلام من خلال التالي:

الأول: غصب الحقوق المالية لها، والعدوان على هذه الحقوق في قضية الإرث والنِّحْلة.

الثاني: العدوان على حرمة الزهراء عليها السلام.

وسنقوم باستعراضهما تباعاً لأهميتها.

مصادرة فدك

إصرار الزهراء عليها السلام وإلحاحها في المطالبة الجادة بفدك يثير أكثر من علامة استفهام، مع أن علياً عليه السلام - بعد خمسة وعشرين عاماً تقريباً[1] - في رسالته المعروفة إلى واليه على البصرة (عثمان بن حنيف)، يقول: ((**بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء.. وما أصنع بفدك وغير فدك، والنفس مظانُّها في غد جدث..**))[2].

---

(١) حيث ان وفاة الرسول صلى الله عليه وآله كانت سنة ١٠هـ وتسلّم الإمام علي عليه السلام الخلافة سنة ٣٥هـ.

(٢) شرح نهج البلاغة: ١٦: ٢٠٨.

هذا هو موقف الإمام علي عليه السلام من فدك، فهو يذكر اسمها والموقف منها بقوله: ((فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين))[1]، فهو يذكر عدم الاهتمام بفدك، وما يصنع بفدك؟! وفاطمة عليها السلام لا تختلف عن علي عليه السلام في هذا الموقف؛ لأنها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تربّت في أحضان الرسالة، ولا يمكن أن نتصور أنها عليها السلام يكون لها اهتماما بفدك، وعلي عليه السلام لا يهتم بها.

فأهل البيت عليهم السلام لم تكن للدنيا في أعينهم أي شيء من الحلاوة والأهمية؛ لأنهم أعرضوا عنها وقصدوا الله سبحانه وتعالى.

إذن، لماذا هذا الإلحاح في الحصول على فدك؟ الذي قد يثير الاستغراب في شخصية الزهراء عليها السلام.

ومن جانب آخر هناك ما يثير الاستغراب أكثر، وهو: لماذا هذا الإصرار والإلحاح من أبي بكر على منع فاطمة فدكاً؟ مع أنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله وجاءت تطالب، وتبكي، وتستصرخ، والخليفة لديه صلاحيات واسعة، ويمكن أن يستخدمها، كما استخدمها الخلفاء من بعده، فيقول لها: هذه فدك، وإن كانت للمسلمين، إلا أنني أمنحها لك، وبيدك أمرها، فأنت ابنة رسول الله، فخذيها واصنعي بها ما تشائين، كما صنع الخليفة عمر عندما كان يحاسب ولاته، الذين كانوا يجمعون الأموال الطائلة، ثم يقاسمهم، فيقول: نصف لنا ونصف لكم، فإذا كان المال للمسلمين فلماذا يدفع للعامل النصف؟ وإن كان المال للعامل، فلماذا يأخذ منه النصف؟

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦: ٢٠٨.

ولكن القوم يوجهون هذا التصرف فيقولون: إن الخليفة كانت لديه الصلاحيات الشرعية بإعطائهم النصف، ويقول: هذا في مقابل عملكم وخدماتكم.

وقد أعطى الخليفة الثالث خمس خراج أفريقيا - الذي يعتبر أهم دخل للمسلمين في ذلك العصر - لمروان بن الحكم[١] الطريد ابن الطريد[٢]، ولم يقل أحد من المسلمين: لماذا تصرّف الخليفة بهذا المال كيفما شاء؟

أفلا يمكن لأبي بكر أن يصنع مثل هذا مع الزهراء عليها السلام في قضية فدك، عندما يرى فاطمة عليها السلام تطالب بها فيعيدها إليها ويحل المشكلة بهذه الطريقة؟ بالرغم من أن الرواية التي يستند عليها في حرمان الزهراء عليها السلام لا يوجد لها راوي إلا هو[٣]، وقد تراجع عنها.

وقد كانت هناك مواقف لبعض خلفاء بني أمية وبني العباس والذين لهم مواقع خاصة في تاريخ المسلمين تؤكد أمكانية إرجاع فدك، من قبيل عمر بن عبد العزيز، وهو من الأمويين، أراد أن يتقرب إلى الناس ويستميلهم فأرجع فدكاً إلى أولاد فاطمة، وكان شخصاً متميزاً في تاريخ بني أمية ولا زال جميع المسلمين شيعة وسنة يحترمونه، فالسنة عندما يتحدثون عن الخلفاء الأثني عشر الذين تحدث عنهم النبي صلى الله عليه وآله يذكرونه

---

(١) تاريخ ابن الأثير: القسم الأول: ٢٨١٨: ط أوربا. ووسائل الشيعة: ١: ٣٢.

(٢) مروان بن الحكم بن العاص، كان الحكم بن العاص – الأب – يحكي ويقلد ويستهزئ بمشية رسول الله صلى الله عليه وآله، فلعنه رسول الله وطرده وأبعده، وصار مشهوراً بانه طريد رسول الله، فنزل في الطائف وخرج معه ابنه مروان. بحار الأنوار: ٣١: ١٧٢. نقلا عن الشافعي.

(٣) وهي رواية ان أبا بكر قال: ((إن رسول الله قال: لا نورث ما تركنا صدقة)) البخاري: ٤: ٤٢.

- عمر بن عبد العزيز - كأحد النماذج لهؤلاء الخلفاء.

وأما الشيعة فيرثيه الشريف الرضي نقيب الطالبين بأبيات تدلل على احترامه لعمر بن عبد العزيز[1].

مضافا إلى أنه من أحفاد أو أسباط الخليفة عمر بن الخطاب، فمن ناحية الأب ينتسب إلى البيت الأموي، والموقف العام للبيت الأموي تجاه بني هاشم والهاشميين والعلويين معروف، كما أن موقف عمر بن الخطاب تجاه قضية الزهراء عليها السلام أيضا معروف، فيذكر التاريخ أن أبا بكر حاول إظهار المرونة واللين في موقفه من الزهراء عليها السلام غير أن عمر كان موقفه متشدداً[2] تجاهها عليها السلام.

---

(١) دير سمعان لأعدتك الغوادي ... خير ميت من آل مروان ميتك
دير سمعان فيك مأوى أبى ... حفص فودي لو أنني آويتك
يابن عبد العزيز لو بكت ... العين فتى من أمية لبكيتك
غير إني أقول انك قد طبت ... وان لم يطب ولم يزك بيتك
أنت نزهتنا عن السب واللعن ... فلو أمكن الجزاء جزيتك
وعجيب أنى قليت بني مر ... وان طرا وإنني ما قليتك
ولو أنى رأيت قبرك لا ... ستحييت من أن أرى وما حييتك
ولو أنى ملكت دفعا لما نا ... لك من طارق الردى لفديتك

النصائح الكافية: ١٠٧.

(٢) ((إن فاطمة عليها السلام بلغها أن أبا بكر قبض فدكا فخرجت في نساء بني هاشم حتى دخلت على أبي بكر، فقالت: يا أبا بكر تريد أن تأخذ مني أرضا جعلها لي رسول الله صلى الله عليه وآله وتصدق بها علي من الوجيف الذي لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب؟ أما كان قال رسول الله صلى الله عليه وآله المرء يحفظ في ولده؟ وقد علمت أنه صلى الله عليه وآله لم يترك لولده شيئا غيرها؟ فلما سمع أبو بكر مقالتها والنسوة معها دعا بدواة ليكتب به، لها فدخل عمر فقال: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله لا تكتب لها حتى تقيم البينة بما

تدعي، فقالت فاطمة عليها السلام: نعم أقيم البينة، قال: من؟ قالت علي وأم أيمن، فقال عمر: ولا تقبل شهادة امرأة أعجمية لا تفصح، وأما علي فيجر النار ((وفي رواية الثقفي باسناده عن ابراهيم بن ميمون بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده عن علي أمير المؤمنين قال: جاءت فاطمة إلى أبي بكر فقالت: ان أبي أعطاني فدكاً، وعلي يشهد لي وأم أيمن، قال: ماكنت لتقولين على أبيك الا الحق، قد أعطيتكها، ودعا بصحيفة من أدم فكتب لها فيها، فخرجت فلقيت عمر، فقال: من أين جئت يا فاطمة؟ قالت: جئت من عند أبي بكر، أخبرته أن رسول الله أعطاني فدكاً... فأعطاتيها وكتب بها لي، فأخذ عمر منها الكتاب، ثم رجع إلى أبي بكر فقال: أعطيت فاطمة فدكاً وكتبت لها؟ قال: نعم، قال عمر: علي يجر إلى نفسه وأم أيمن امرأة، وبصق في الكتاب ومحاه، راجع الشافي ٤٠٨ تلخيص الشافي: ٣: ١٢٥، وترى مثله في الاحتجاج لابي منصور الطبرسي)) إلى قرصته، فرجعت فاطمة عليها السلام وقد دخلها من الغيظ ما لا يوصف، فمرضت وكان على عليه السلام يصلي في المسجد الصلوات الخمس، فلما صلى قال له أبو بكر وعمر: كيف بنت رسول الله... إلى أن ثقلت فسألا عنها وقالا: قد كان بيننا وبينها ما قد علمت، فان رأيت أن تأذن لنا لنعتذر إليها من ذنبنا، قال: ذلك إليكما. فقاما فجلسا بالباب ودخل علي عليه السلام على فاطمة عليها السلام فقال لها: أيتها الحرة! فلان وفلان بالباب، يريد ان أن يسلما عليك فما ترين؟ قالت: البيت بيتك، والحرة زوجتك، افعل ما تشاء، فقال: سدي قناعك فسدت قناعها، وحولت وجهها إلى الحائط، فدخلا وسلما، وقالا ارضي عنا رضي الله عنك، فقالت ما دعاكما إلى هذا؟ فقالا اعترفنا بالإساءة، ورجونا أن تعفي عنا [وتخرجي سخيمتك] فقالت: إن كنتما صادقين فأخبراني عما أسئلكما عنه فاني لا أسئلكما عن أمر إلا وأنا عارفة بأنكما تعلمانه، فان صدقتما علمت أنكما صادقان في مجيئكما، قالا: سلي عما بدا لك، قالت نشدتكما بالله هل سمعتما رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: فاطمة بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني قالا: نعم، فرفعت يدها إلى السماء فقالت اللهم إنهما قد آذياني فأنا أشكوهما إليك وإلى رسولك، لا والله لا أرضى عنكما أبدا حتى ألقى أبي رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره بما صنعتما، فيكون هو الحاكم فيكما قال: فعند ذلك دعا أبو بكر بالويل والثبور، وجزع جزعا شديدا، فقال عمر: تجزع يا خليفة رسول الله من قول امرأة؟)) بحار الأنوار: ٢٨: ٣٠٢.

فالمفروض أن انتماءه النسبي يجعله لا يتعامل مع هذه القضية عاطفياً ولا سياسيا.

وعندما ارجع فدكا إلى بني هاشم واجه معارضة سياسية واسعة من قبل الجهاز الحاكم الأموي وأتباعهم، ومن كل تيار يقف في وجه إرجاع أي حق إلى العلويين؛ لان القضية كانت لها أبعاد سياسية، ولذا انتقدوا موقفه، لكنه ارجع فدكاً للزهراء عليها السلام مداراة للشعور العام للمسلمين، وإظهار جانب من العدل في حكمه، فكان أول عمل قام به هو إرجاع فدك إلى بني هاشم.

وعندما تحدث هارون الرشيد مع الإمام موسى الكاظم عليه السلام كان يقول: ((خذ فدكاً حتى أردها إليك فيأبى حتى ألح عليه، فقال عليه السلام: لا آخذها إلا بحدودها، قال: وما حدودها؟ قال: إن حددتها لم تردها، قال: بحق جدك إلا فعلت. قال: أمّا الحد الأول فعدن، فتغير وجه الرشيد وقال: إيهاً، قال: والحد الثاني سمرقند، فأربد وجهه، والحد الثالث أفريقية، فاسود وجهه و قال: هيه، قال: والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية، قال الرشيد: فلم يبق لنا شيء فتحوّل إلى مجلسي، قال موسى: قد أعلمتك أنني إن حددتها لم تردها، فعند ذلك عزم على قتله))[1].

وموقف المأمون وغيره من المواقف التي تؤكد أن فدكاً كانت للزهراء عليها السلام، وإنها تحولت - فدك - إلى خط واضح في المظلومية.

لقد تمكنت الزهراء عليها السلام - بالرغم من حجم ألمها - أن تحرك كل هذه

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣: ٤٣٥.

المظلومية باتجاه الحق، وتحول قضية الإرث إلى فكرة ومنطق وخط وأساس في كل مجرى التأريخ، وثبتت قضيتها فكرياً ومنطقياً وتاريخيا، وتحدثت في أعظم موقع عن قضيتها، وهذا يفسر لنا بقاء خطبتها حية محفوظة[1]؛ لأن القضايا التي تحدثت عنها كان وراءها فكرة ورؤية وموقف وهدف، وليست حادثاً عابراً، وإنما كانت عليها مخططة لذلك، كي يبقى هذا الأثر ويستمر ويُحفظ، ولا تصبح القضية في مهب رياح التأريخ، وهذا ما حصل فقد بقيت معركة فدك حتى يومنا هذا، بحيث أصبحت شعاراً من شعارات أتباع أهل البيت عليهم السلام.

ومن هنا يمكن أن نفهم الغرض من المطالبة بفدك، وكذلك يمكن أن نفهم سبب حرمانها عليها السلام منها، والذي يتلخص بأمرين هامين، هما:

أولاً: إن فدكاً كانت تمثل قدرة وقوة مالية مهمة.

ثانياً: إنها تثبت لهذه الأسرة، وهذا البيت الكريم، حقاً يختلف عن حقوق الآخرين، فأراد القوم أن ينسخوا هذا الحق، كما نسخوه في الخُمس.

وسوف تبقى فدك حقيقة قائمة من الحقائق تتداولها الأجيال، وهي: قضية غصب للحق والمال والإرث.

---

(١) وهنا نرى أن بعض الناس يحاول أن يعمل بارائه وفهمه للأحداث دون أن يتأمل، فيقول: عندما خطبت الزهراء عليها السلام هذه الخطبة الطويلة الرنانة، فمن الذي حفظها؟ ومن الذي كتبها؟ ومن الذي رواها؟ والحال أنه لا توجد هناك تسجيلات أو كتابات، فلابد أن يكون هناك أُناس رتبوها بعد ذلك ونمّقوها، هكذا يتحدث بعض الناس سراً، والبعض الآخر علناً، لكن القضية ليست كذلك..(المؤلف).

معركة الدار

إن حادثة الباب التي يتحدث عنها التأريخ الإسلامي، ويشير لها الخطباء والمتحدثون عن قضية الزهراء عليها السلام قد تبدو غريبة، فعندما حصل الهجوم على الدار - كما نصت الروايات على ذلك - أو كان هناك طَرْقٌ على الباب - كما يحاول البعض أن يهوّن الأمر - ليستدعوا علياً عليه السلام لبيعة أبي بكر.

قد يثار سؤال حول خروج الزهراء عليها السلام لفتح الباب؟ ولماذا لم يخرج الإمام علي عليه السلام وهو رجل البيت؟ أو يخرج من كان معه - كما تنص بعض الروايات التاريخية على ذلك - من قبيل الزبير وسلمان وعمار والمقداد وغيرهم ممن كان مع علي عليه السلام سواء أكان هذا الأمر هجوماً، فالرجال أولى بمواجهته، أم كان استدعاءً، فالأولى أن يقوم أحد الرجال للتفاهم مع القوم، فلماذا تبادر الزهراء عليها السلام لفتح الباب، ويقع عليها ما وقع؟ مع أن البيوت في ذلك الزمان - وهذا أمر واضح - كانت صغيرة جداً، بحيث إننا لا يمكن افتراض أن الباب طُرقت وهؤلاء الرجال كانوا في آخر البيت لم يسمعوا شيئاً من هذا الطرق.

فإذا كان علي عليه السلام مأموراً بالتسليم لهذا الأمر الواقع - كما تذكر ذلك بعض النصوص - والقبول به، والصبر على ما جرى في سقيفة بني ساعدة، فلماذا تخرج الزهراء عليها السلام بعد ذلك وتتبع علياً وتلح في طلبه إلى حدٍ تتعرض فيه إلى أقسى ألوان الانتهاك للحرمة، والإذلال والإهانة - كما تذكر النصوص - كضربها على وجهها، أو ضربها بالسوط؟

قد يثار هذا السؤال بشكل استغراب على أولئك الذين يفترضون أن هناك أمراً بالسكوت المطلق والتسلم، سواء لعلي عليه السلام أم لأهل البيت عليهم السلام.

لابد أن نعرف طبيعة معركة الدار، كي نفهم الإجابة عن السؤال.

كانت المعركة تدور آنذاك على أن البيعة التي تمت في سقيفة بني ساعدة هل هي بيعة شرعية متطابقة مع النظرية الإسلامية أو لا؟

كان موقف الإمام علي عليه السلام هو الموقف الرئيس الذي يمكن أن يعبر عن هذا الموضوع، فلو أنه عليه السلام بايع في ذلك الوقت لانتهت المعركة، ولو رفض للزم منه القبول بالواقع المفروض؛ لما تقدم من انه عليه السلام لا يريد الدخول في مواجهة، في وقت كان القوم مستعدين أن يقتلوه إذا لم يبايع، وقد هددوه بذلك[1]، وكان بإمكانهم أن يرتبوا مبررات شرعية لعملهم، ويقولوا: إن كل من يشق عصا المسلمين، ولم يبايع ويخالف فاقتلوه، والإمام علي عليه السلام لم يبايع، فيقتل؛ لأنه شق عصا المسلمين.

وهنا قامت الزهراء عليها السلام بدورها، ولم يكن لأحد أن يقوم به؛ لذا بذلت كل طاقاتها وإمكاناتها لكي لا تتم البيعة، ومن ناحية أخرى أرادت أن ينجو الإمام علي عليه السلام. فقد قامت عليها السلام بعمل فدائي استشهادي لتحقيق هذا الهدف، الذي كان مركزياً بالنسبة لها،فقد كان القوم مستعدين أن يصنعوا كل شيء ليحققوا هدفهم، ومن هنا يمكن أن نفهم سبب خروج الزهراء عليها السلام لفتح الباب، وعدم خروج علي عليه السلام، وكيف أنها عليها السلام تعرضت للأذى البدني من كسر الضلع، وسقوط الجنين، وكان من الممكن أن تتراجع، لكنها أرادت أن تثبت هذا الموقف،

---

(١) قال عمر لأمير المؤمنين بعد أن تكلم علي عليه السلام مع أبي بكر: ((بايع ودع عنك هذه الأباطيل فقال له علي عليه السلام: فان لم افعل فما انتم صانعون؟ قالوا نقتلك ذلا وصغاراً))، بحار الأنوار: ٢٨: ٢٧١، سليم بن قيس: ١٥٣.

وهو أن عليا عليه السلام لا يبايع، فتتحامل على نفسها - رغم أن كسر الضلع وسقوط الجنين تجعل الإنسان غير قادر على الحركة - وتخرج من البيت وتعرض المسلمين، وتستمر في المقاومة، رغم تعرضها للضرب على الخد والمتن[1] بالأساليب الوحشية التي استخدمها القوم ضدها، ولذلك نجد

---

(١) فلما فشت بيعته علمنا (أي عمر) أن عليا يحمل فاطمة والحسن والحسين إلى دور المهاجرين والأنصار يذكرهم بيعته علينا في أربعة مواطن، ويستنفرهم فيعدونه النصرة ليلا ويقعدون عنه نهارا، فأثبت داره مستبشرا لإخراجه منها، فقالت الأمة فضة - وقد قلت لها قولي لعلي: يخرج إلى بيعة أبي بكر فقد اجتمع عليه المسلمون -: إن أمير المؤمنين مشغول، فقلت: خلي عنك هذا وقولي له يخرج وإلا دخلنا عليه وأخرجناه كرها، فخرجت فاطمة فوقفت من وراء الباب، فقالت: أيها الضالون المكذبون! ماذا تقولون؟ وأي شئ تريدون؟. فقلت: يا فاطمة . فقالت فاطمة: ما تشاء يا عمر؟ . فقلت: ما بال ابن عمك قد أوردك للجواب، وجلس من وراء الحجاب؟. فقالت لي: طغيانك - يا شقي - أخرجني ولزمك الحجة، وكل ضال شوي. فقلت: دعي عنك الأباطيل وأساطير النساء، وقولي لعلي يخرج. فقالت: لا حباً ولا كرامة أبحزب الشيطان تخوفني يا عمر؟! وكان حزب الشيطان ضعيفا. فقلت: إن لم يخرج جئت بالحطب الجزل وأضرمتها نارا على أهل هذا البيت وأحرق من فيه، أو يقاد علي إلى البيعة، وأخذت سوط قنفذ فضربت، وقلت لخالد بن الوليد: أنت ورجالنا هلموا في جمع الحطب، فقلت: إني مضرمها. فقالت: يا عدو الله وعدو رسوله وعدو أمير المؤمنين، فضربت فاطمة يديها من الباب تمنعني من فتحه، فرمته فتصعب علي فضربت كفيها بالسوط فأدمتها، فسمعت لها زفيرا وبكاء، فكدت أن ألين وأنقلب عن الباب فذكرت أحقاد علي وولوعه في دماء صناديد العرب، وكيد محمد وسحره، فركلت الباب، وقد ألصقت أحشاءها بالباب تترسه، وسمعتها وقد صرخت صرخة حسبتها قد جعلت أعلى المدينة أسفلها، وقالت: يا أبتاه ! يا رسول الله ! هكذا كان يفعل بحبيبتك وابنتك، آه يا فضة! إليك فخذيني فقد والله قتل ما في أحشائي من حمل، وسمعتها تمخض، وهي مستندة إلى الجدار، فدفعت الباب، ودخلت فأقبلت إلي بوجه أغشى بصري، فصفقت صفقة على خديها من ظاهر الخمار فانقطع قرطها وتناثرت إلى الأرض،

≺

وخرج علي، فلما أحست به أسرعت إلى خارج الدار وقلت لخالد وقنفذ ومن معهما: نجوت من أمر عظيم. بحار الأنوار:٣٠: ٢٩٢.

وروى قصة استيذانهما على فاطمة وما جرى بعدها ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: ١: ٢٠. والجاحظ في أعلام النساء: ٣: ١٢١٤. راجع صحيح البخاري فضائل الصحابة الباب١٢ و ١٦ و ٢٩ كتاب النكاح: ١٠٩، صحيح مسلم فضائل الصحابة الحديث: ٩٣، ٩٤، سنن أبي داود كتاب النكاح:١٢ سنن الترمذي كتاب المناقب: ٦٠، سنن ابن ماجة كتاب النكاح الباب٥٦. مسند الإمام ابن حنبل: ٤: ٥ و ٣٢٨ و ٣٢٦ و ٣٢٣ سنن السجستاني: ١: ٣٢٤ خصائص النسائي: ٣٥، مستدرك الحاكم: ٣: ١٥٤ و ١٥٨ و ١٥٩، حلية الأولياء: ٢: ٤٠ ، سنن البيهقي: ٧: ٣٠٧، شرح النهج الحديدي: ٢: ٤٣٨، مجمع الزوائد: ٩: ٢٠٣، ولن شئت راجع الغدير: ٧: ٢٣٢ .

وقال العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: طفحت واستفاضت كتب الشيعة، من صدر الإسلام، والقرن الأول، مثل كتاب سليم بن قيس، ومن بعده إلى القرن الحادي عشر وما بعده، بل وإلى يومنا هذا، كل كتب الشيعة التي عنيت بأحوال الأئمة، وأبوهم الآبة الكبرى، وأمهم الصديقة الزهراء صلوات الله عليهم أجمعين، وكل من ترجم لهم، وألف كتابا فيهم، وأطبقت كلمتهم تقريبا، أو تحقيقا في ذكر مصائب تلك البضعة الطاهرة: إنها بعد رحلة أبيها المصطفى ضرب الظالمون وجهها، ولطموا خدها، حتى احمرت عينها، وتناثر قرطها، وعصرت بالباب حتى كسر ضلعها، وأسقطت جنينها، ماتت وفي عضدها كالدملج. مأساة الزهراء للبيتاكا:١: ١٦٤.

ما رواه البلاذري وغيره من أن عمر جاء ومعه قبس، فتلقته فاطمة على الباب، فقالت: يا ابن الخطاب، أتراك محرقا علي بابي؟ ! قال: نعم، وذلك أقوى فيما جاء به أبوك.

وتقول رواية المفضل: وخروج فاطمة، وخطابها لهم من وراء الباب. إلى أن تقول: وإدخال قنفذ يده لعنه الله يروم فتح الباب.. ثم تذكر أن عمر ركل الباب برجله حتى أصاب بطنها الخ.

وفي كتاب سليم بن قيس: انتهى إلى باب علي، وفاطمة قاعدة خلف الباب.. إلى أن قال: فأقبل عمر حتى ضرب الباب، ثم نادى: يا ابن أبي طالب، افتح الباب. فقالت فاطمة للبيتاكا: يا عمر، ما لنا ولك، ألا تدعنا وما نحن فيه؟ قال: افتحي الباب وإلا أحرقنا عليكم.. إلى أن قال: فأحرق الباب، ثم دفعه عمر، فاستقبلته فاطمة، وصاحت: يا أبتاه الخ.

وعن عمر: فركلت الباب، وقد ألصقت أحشاءها بالباب تترسه.. إلى أن قال: فدفعت الباب

أنّ مؤرخي العامة عندما يريدون أن يبرروا عدم بيعة الإمام عليه السلام، فإنهم يقولون: إنه لم يبايع إرضاءً للزهراء عليها السلام، ولذا بعد وفاتها بايع.

فالزهراء عليها السلام كانت تريد أن تقاتل حتى الموت من أجل تثبيت هذا الموقف، وهو: أن علياً عليه السلام لا يبايع، وكان القوم يرون أنه إذا لم يبايع فسوف تفقد البيعة أساساً مبدئياً: هو أن هذا الحكم غير حقيقي، وليس متطابقاً مع الشريعة، وإلاّ لماذا الإصرار منهم على ضرورة مبايعة الإمام

فدخلت، فأقبلت إلي بوجه غضبي بصري الخ..

وعن عمر أيضا: فلما انتهينا إلى الباب، فرأتهم فاطمة عليها السلام أغلقت الباب في وجوههم، وهي لا تشك أن لا يدخل عليها إلا بإذنها، فضرب عمر الباب برجله فكسره - وكان من سعف - ثم دخلوا.

وتقول عليها السلام: وأتوا بالنار ليحرقوه ويحرقونا، فوقفت بمضادة الباب، وناشدتهم بالله الخ.. وعن عمر بن الخطاب أيضا: فضربت فاطمة يدها من الباب تمنعني من فتحه، فرمته، فتصعب علي، فضربت كفها بالسوط فأدمها. إلى أن قال: فركلت الباب، وقد ألصقت أحشاءها بالباب تترسه. إلى أن قال: فدفعت الباب ودخلت، فأقبلت إلي بوجه أغضى بصري، فصفقت صفقة على خديها من ظاهر الخمار، فانقطع قرطها، وتناثرت إلى الأرض، وخرج علي، فلما أحست به أسرعت إلى خارج الدار، وقلت لخالد، وقنفذ، ومن معهما: نجوت من أمر عظيم. إلى أن قال: وجمعت جمعا كثيرا، لا مكاثرة لعلي، ولكن ليشد بهم قلبي، وجئت - وهو محاصر - فاستخرجته من داره الخ. ومن جهة ثانية: فإن بعض النصوص تشير إلى أن المهاجمين كانوا يحاولون الضغط على فاطمة عليها السلام وتخويفها، حتى لا تقف حاجزا بينهم وبين علي ومن معه، بل هم يريدون منها أن تساعدهم في كسر قرار الممتنعين في بيتها، فمن ذلك: - قولهم: إن المهاجمين حين جاؤا إلى بيتها نادى عمر: يا فاطمة بنت رسول الله، أخرجي من اعتصم ببيتك ليبايع، ويدخل فيما دخل فيه المسلمون، وإلا - والله - أضرمت عليهم نارا. وفي نص آخر، أنه قال: يا بنت رسول الله والله، ما من الخلق أحب إلي من أبيك ومنك، وأيم الله ما ذلك بمانعي ان اجتمع هؤلاء النفر عندك، أن آمر بهم أن يحرق عليهم الباب الخ. - مأساة الزهراء عليها السلام: ١ :٣١٧: وكذا رويت معركة الدار ومثله جاء في بحار الأنوار: ٣٠: ٣٤٨: ح ١٦٤، وغيرها من المصادر.

علي عليه السلام، فهم قد تسلطوا على الحكم، وعلي جالس في بيته مع ستة أو سبعة أو ثمانية، إلا إنهم يعرفون أنه إذا لم يبايع علي عليه السلام، فهذا الحكم لا شرعية له.

ولذلك لم يجرء أحد من أصحاب تلك المدرسة على القول: إن حكمهم كان منصوصاً عليه في الإسلام، وإنما قالوا: إن النبي صلى الله عليه وآله ترك هذا الأمر، ولم ينص على شيء، والمسلمون هم الذين يدبّرون الأمر من بعده.

فلو كان علي عليه السلام قد بايع، لوجدنا الكتب التي توارثها المسلمون جيلاً بعد جيل، مليئة بالأحاديث من أولئك الذين أنذرهم النبي صلى الله عليه وآله بقوله: ((**لقد كثرت عليّ الكذّابة وستكثر، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار**))[1]، ولوجدنا تلك الكتب مملوءة بنصوص تقول: إن النبي صلى الله عليه وآله نصّ على خلافة فلان، وأن القرآن الكريم يقول في الآية الفلانية: إن فلاناً هو الخليفة.

لكن موقف الإمام علي عليه السلام أثبت أن هذا الحكم ليس حكماً إلهياً مرتبطاً بالشريعة، وكانت الزهراء عليها السلام تريد أن تبين هذا الأمر.

حقيقة العدوان على الزهراء عليها السلام

لقد كابدت الزهراء عليها السلام محنة العدوان على حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم على حرمة علي عليه السلام، وحرمة بيتها، هذا البيت الذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يذهب في سفر، إلّا وكان أخر عهده هذا البيت، حيث كان

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٤: ٣٦٤. والبخاري بلفظ: ((...**ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**)) البخاري: ٢: ٨١، وهو حديث مشهور عند المسلمين.

يودع فاطمة الزهراء عليها السلام وإذا رجع من السفر كان أول عهده هذا البيت[١]، وعن نافع بن أبي الحمراء قال: ((شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله ثمانية أشهر، إذاً خرج إلى صلاة الغداة مرّ بباب فاطمة عليها السلام فقال: السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾))[٢]. انه البيت الذي لم يُسد بابه مع سد جميع أبواب البيوت المؤدية إلى المسجد[٣]، حيث كانت له هذه القدسية: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[٤] وكان صلى الله عليه وآله يطبق هذه الآية على هذا البيت. فهذا البيت مع ما له من هذا المقام، يعتدى عليه ويؤتى بالحطب لكي يحرق، وإذا ببدن الزهراء عليها السلام يتعرض للضرب واللطم والكسر والإهانة، مع أن الزهراء عليها السلام امرأة، والمرأة تُصان وتحترم كما يحترم الضعفاء، وهي عليها السلام زوجة علي وأم الحسنين عليهما السلام، أم هذا البيت الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٥].

إذن، يجب أن نفهم العدوان لا على مستوى ما يفهمه عامة الناس الذين نستدر عواطفهم وأحاسيسهم من خلال ذكر التفاصيل، وإنما لابد أن نفهمه بصورة أعمق من ذلك، وهو يتمثل

---

(١) كشف الغمة: ٢: ٧٩.

(٢) كشف الغمة: ٢: ٨٤ و المناقب للخوارزمي: ٦٠.

(٣) الغدير: ٣: ٢٠٢ - ٢١١، والبداية والنهاية لابن كثير: ٧: ٣٧٩.

(٤) النور: ٣٦.

(٥) الأحزاب: ٣٣. راجع سنن الترمذي: ٥: ٣٢٨: ح ٣٨٧٥ .

بما يلي:

اولا: عدوان على القرآن

إن العدوان على الزهراء عليها السلام يشكل عدوانا على أهم مقدّس لدى جميع المسلمين، وهو: القرآن الكريم، حيث وردت فيه نصوص عديدة يجمع المسلمون على أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا﴾[1].

نعم، قد يختلف المسلمون في دائرة أهل البيت عليهم السلام من حيث عددهم ومن تشملهم الآية، لكن القدر المتيقن لدى جميع المسلمين أن الزهراء أحد مصاديق أهل البيت عليهم السلام في هذه الآية الكريمة، حيث لا يختلف أحد من المسلمين في انطباق هذه الآية على الزهراء عليها السلام، وهي مصداق لها[2]، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[3]، أو ما ورد في آية المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾[4][5]. لذا فإن العدوان على الزهراء عليها السلام عدوان على

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) مستدرك الحاكم: ٣: ١٥٨ والدر المنثور: ٥: ١٩٩.

(٣) الشورى: ٢٣.

(٤) آل عمران: ٦١.

(٥) عن ابن عباس في قوله عزوجل: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ....﴾ قال: نزلت في رسول الله وعلي(أنفسنا) و(نساءنا) فاطمة و(ابناءنا) حسن وحسين. شواهد التنزيل: ١: ١٦٠. ومثله في جامع البيان للطبري: ٣: ٤٠٤. وينابيع المودة: ١: ١٣٦. وغيره.

القرآن الكريم.

ثانياً: عدوان على النبي ﷺ

لقد كان العدوان على الزهراء عدوان على النبي ﷺ - وهو أقدس من عرفته البشرية في تأريخها - وبتعبير آخر: إن ظلامة الزهراء كانت ظلامة لكل المقدسات الإسلامية، وأبرزها وأوضحها رسول الله ﷺ، وهو المثال الكامل في وجود الإنسان؛ لان رضا فاطمة رضاه ﷺ وهذا ما قالته عليها السلام للشيخين عندما جاءا للاعتذار منها، فقالت: ((**نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضا فاطمة من رضاي، وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني، ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟** " قالا: نعم، سمعناه من رسول الله ﷺ، قالت: **فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لاشكونكما إليه**))[1].

إذن، فالعدوان عليها عدوان على رسول الله ﷺ.

ثالثاً: عدوان على أهل البيت عليهم السلام

لا يشك أحد من المسلمين أن لأهل البيت عليهم السلام منزلة خاصة عند الله سبحانه وتعالى، يمتازون بها على عامة المسلمين، وهذه المنزلة منهم من يقول: إنها منزلة الإمامة، وهذا ما يقوله جماعة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، ومنهم من يقول: إنها منزلة المودة الخاصة، أي: الدرجة الخاصة من المودة، بحيث يكون كمال الصلاة وتمام العبادة والدين بها.

---

(١) الإمامة والسياسة: ١: ٣١.

وبعضهم يقول: إنها مجرد الحب والولاء وما أشبه ذلك.

وعلى أي حال فإن هذه الخصوصية يجمع عليها المسلمون، ويرون في أهل البيت عليهم السلام قدسية لا يرونها في أية جماعة أخرى من المسلمين، فالعدوان على الزهراء عليها السلام هو عدوان على أهل البيت عليهم السلام.

رابعا: عدوان على الرسالة

ثمة مسألة أخرى ركزت عليها الزهراء عليها السلام تركيزاً كبيراً مهماً، وهي: العدوان على الرسالة الإسلامية، وهي أقدس ما ضحى من أجله الأنبياء والأولياء، وهذه التضحيات الواضحة في تأريخنا إنما كانت من أجل الرسالة الإسلامية، لكننا نجد أن هذه الرسالة تعرضت إلى العدوان في قضيه الزهراء عليها السلام - وهذا ما يقلّ الحديث عنه - عادة - في مظلومية الزهراء عليها السلام - وهذا ما يفسر استعداد الزهراء عليها السلام للشهادة والتضحية في سبيل ذلك.

كان يمكن لها عليها السلام أن تصنع ما صنع علي عليه السلام والأصحاب الخلّص له، وذلك أن يحتفظوا بدمائهم أو يقفوا موقف السكوت، إلا أن الزهراء عليها السلام تقدمت في المعركة حيث لم يكن غيرها يستطيع أن يفعل ذلك، ويتحمل هذه المسؤلية، باعتبار خصوصياتها وشؤونها التي تقدمت الإشارة لها.

خامسا: عدوان على المؤمن

لقد ورد في كثير من الروايات أن للمؤمن حرمة وكرامة عند الله سبحانه وتعالى أفضل حرمة وكرامة من الكعبة الشريفة، التي لها كرامة في نظر المسلمين بدرجة عالية[1].

---

(١) الصدوق بسند صحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((المؤمن أعظم حرمة من الكعبة)). الخصال: ٢٧: ح٩٥.

وفي بعض الروايات انه لو مست هذه الكرامة لاهتز لها عرش الله سبحانه وتعالى؛ لأن المؤمن في كل يوم عندما يقف بين يدي ربه ليصلي، يتوجه إلى الكعبة الشريفة، فيعطيها هذا النوع من الاحترام والتعظيم والكرامة، فكأنه يجسد الله سبحانه وتعالى في هذا البيت الحرام الذي وضعه للناس، فإذا كان للمؤمن العادي هذه الكرامة، فكيف إذا كان هذا المؤمن هو الزهراء عليها السلام وإن حرمتها وكرامتها خاصة، باعتبار انتسابها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وباعتبار شخصيتها ومواصفاتها وعلّو مقامها وسموها.

فهي الصديقة الطاهرة النقية الزكية العالمة إلى غير ذلك من المواصفات، وكانت معروفة بين المسلمين بهذه الخصوصيات، ويكفي في هذا الأمر آية التطهير.

فعندما ينزل الظلم بمثل هذه الذوات الطاهرة التي يعرفها المسلمون بهذه الطهارة، وهذا العدوان لم يكن عاديا، وإنما كان يمثل أعلى درجات العدوان على كرامة الإنسان في العرف الاجتماعي القائم في ذلك الوقت. ندرك حجم الانتهاك والعدوان الذي مارسه القوم.

سادسا: عدوان على المرأة

ثمة مقدس آخر في الإسلام له حرمة كبيرة، وهو: المرأة. وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية العرفية، نرى أن المرأة تعتبر إحدى المحرمات في المجتمع الإنساني. وكذلك في نظر الإسلام، وأشد ما يقع على الإنسان من العدوان أن يرى زوجته يُعتدى عليها أمام عينيه.

وهناك كلمة للإمام علي عليه السلام في هذا المجال، يقول فيها:

((فليت ابن أبي طالب مات قبل يومه))[1].

لذا فإن الاعتداء على هذه الحرمات يُعدُّ من أشد ألوان الاعتداء، ومن ثم فإن ما جرى على عيالات الإمام الحسين عليه السلام بعد مقتله كان يوازي ما جرى عليه عليه السلام، ولم يكن ذلك قتلاً أو ذبحاً أو رمياً بسهم أو ضرباً بسيف أو حجارة، وإنما الذي جرى عليهم هو هتك حرماتهم من سبي ونهب، وما أشبه ذلك مما تعرضوا له بصورة عامة.

وقد جرى مثل ذلك على الزهراء - بلا شك - سواء كان كسر الضلع، أم العصر وراء الباب، أم اللكم على العين والخد، أم الضرب وشق الأذن وانفراط القرط، أم الوكز في الجنب وإسقاط الجنين[2] أم غير

---

(١) الهجوم على بيت فاطمة: ٣٣١.

(٢) راجع: كتاب سليم بن قيس: ١٤٨، وبحار الأنوار: ٣٠: ٢٩٣، ودلائل الإمامة للطبري: ١٣٤: ح٤٣.

وقد نظم العلامة الفقيه السيد محمد بن السيد مهدي القزويني المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ ذلك شعراً، فقال:

يا عجبـــاً يستأذن الأمينُ *** عليهم ويهجـم الخـــؤونُ
قال سُليم قلت يا سلمـــانُ *** هل هجمـوا ولم يكُ استيذانُ
فقال: إي وعزة الجبـــارِ *** وما علـى الزهراء من خمارِ
لكنها لاذت وراء البـــابِ *** رعايةً للستـر والحجـــابِ
فمذ رأوها عصروها عصرة *** كادت بنفسي أن تموت حسرة
تصيـــحُ يا فضة سنديني *** فقد وربـي قتلـوا جنينـي
فأسقطت بنت الهدى وا حزنا *** جنينها ذاك المسمـى محسنا
ولم يرعها كل ما قد فعلـوا *** لكنها قد خرجت تولـــولُ
فانبعثت تصيح بين النـاس *** خلـوه أو لأكشفنَّ راســي

وقال المرحوم السيد صدر الدين الصدر المتوفى سنة ١٣٧٣ هـ في هذا المعنى أيضاً:

لست أنساها ويا لهفي لها *** إذ وراء الباب لاذت كي توارى

ذلك مما جرى عليها، إن هذه المرأة التي تمثل النموذج الكامل للمرأة، ومن ثم النموذج الكامل للقدسية في نظر الإسلام والمجتمع الإسلامي، قد تعرضت إلى هذا العدوان على حرمتها.

تكامل الأدوار

لو قارنا موقف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع موقف فاطمة الزهراء عليها السلام، نجد أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قام بواجبه وتكليفه الشرعي، وكان صلباً وصامداً، ولا يمكن القول: إن الزهراء عليها السلام كانت أصلب منه عليه السلام في الموقف، فموقف أمير المؤمنين وواجبه المشخص من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وآله، كان محدداً في إبراز موقف الرفض من الوضع السياسي الجديد.

وقد قام عليه السلام بواجبه بهذا الشأن، فرفض البيعة منذ البداية، وهُدّد بالقتل وإحراق الدار عليه، لكنه مع ذلك كان صلباً، ولم يتنازل عن موقفه، وبقي مصراً عليه إلى آخر عمره الشريف؛ لأن مسؤليته كانت هي: أن يسجّل هذا الموقف على الخلافة الجديدة، وأن البيعة غير شرعية، ويجب أن يقول ذلك ويبيّنهُ للمسلمين، بشكل يجعل المسلمين يفهمونه، وهذا ما صنعه عليه السلام.

ولم يكن المطلوب منه أن يقاتل؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله على ما دلت عليه

لا تسلني كيف رضّوا ضلعها *** واسألنّ الباب عنها والجدارا

واسألن أعتابها عن محسن *** كيف فيها دمه راح جبارا

واسألن لؤلؤ قرطيها لمَ انـ *** ـتثرت والعين لم تشكو احمرارا

وهل المسمار موتور لها *** فغدا في صدرها يطلب ثارا

النصوص الكثيرة أوصاه بعدم القتال[١]، وقد ذكر عليه السلام السبب، وخلفية الوصية، وأنه لو أراد الدخول في مواجهة مسلحة وقتال لأدّى ذلك إلى انشقاق كبير وضعف في وضع المسلمين، الأمر الذي يجعل حركة الارتداد التي كانت قائمة ذلك الوقت كحركة سياسية، قادرة على التغلب على وضع المسلمين بعد ضعفهم، وبالتالي يكون أصل وجود الإسلام مهدداً، وهذا ما بينه أمير المؤمنين عليه السلام بعد ذلك[٢].

أما الزهراء عليها السلام فكان دورها استثنائياً؛ لأنها عليها السلام بالأصل غير مكلفة بالجهاد، ولكن وجدت أن علياً عليه السلام معرض للقتل، وكان من المحتمل أن يُقتل عليه السلام بسبب رفضه للبيعة.

فالزهراء عليها السلام كان موقفها هو التظلم لعلي عليه السلام ولنفسها، وكشف الحقيقة، الأمر الذي يصب في نفس موقف الإمام علي عليه السلام وهو تسجيل الرفض باتجاه الخلافة والأوضاع الجديدة.

فكل من الموقفين كان صلباً، غاية الأمر أن الزهراء عليها السلام قامت بواجبها ووظيفتها التي لم يكن من الممكن لعليّ عليه السلام أن يقوم بها؛ لأن شخصية الزهراء وظروفها كامرأة منتسبة لرسول الله صلى الله عليه وآله، كان دورها - التظلم - يعطيها فرصة للحركة، وشيئاً من الأمان من القتل. وإن كانت لم تأمن الضرب والاعتداء والتجاوز، إلا أن موقفها كان يعطيها أماناً نسبياً من القتل.

---

(١) ((والذي كرم محمدا بالنبوة وبأبي صهرك لو لا كتاب من الله سبق، وعهد عهده إلي رسول الله لعلمت أنك لا تدخل بيتي)) كتاب سليم بن قيس الهلالي: ١٥٠، اللمعة البيضاء: ٨٧٠، بحار الأنوار: ٢٨: ٢٦٩، بيت الأحزان: ١١٠، مجمع النورين: ٨١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٦: ٩٥.

إذن، فالموقف يرجع إلى نفس نظرية توزيع الأدوار[١].

---

(١) إن التمايز بين الرجل والمرأة يعود سببه إلى رؤية إسلامية للمجتمع، وهي: أن مجتمع الإسلام يقسّم الواجبات والوظائف في المجتمع، فكما أن هناك وظائف مشتركة، هناك وظائف خاصة لهذا الإنسان أو ذاك، باعتبار التقسيم الاجتماعي في الرؤية الإسلامية.

إننا نجد في الرؤية الإسلامية (مثلاً) أن هناك واجبات يتحملها الشخص الأول في الأمة ولا يشترك فيها بقية الناس، ولذلك ورد في نصوص أهل البيت عليهم السلام: إن هناك تكاليف تختص بها رسول الله ﷺ، باعتبار الموقع المعين له، وهذه التكاليف لا يشترك فيها معه بقية الناس باعتبار وجود الموقع الخاص.

وهناك تكاليف تختص بها الرعية دون الإمام، فعندما نلاحظ التقسيم الاجتماعي نرى أن هناك واجبات يتحملها الإمام وواجبات تتحملها الأمة، ومن خلال هذه الواجبات تصبح العلاقة متكاملة بين الإمام وبين الأمة.

وإذا أخذنا مفردة أخرى: وهي: (الأسرة)، نجد أن هناك واجبات يتحملها الرجل لا تتحملها المرأة، فالرجل مسؤل عن الإنفاق على الأسرة، لكن المرأة في الأصل ليست مسؤلة عن ذلك، إلاّ في ظروف استثنائية سوف أشير إليها.

والأصل أن الرجل هو الذي يكون مسؤلا عن الإنفاق، وتحمل مسؤلية الزوجة والأطفال، حتى لو افترضنا أن المرأة كان لديها أموال والرجل لا مالاً منها، أو كانت لديها فرص العمل أكثر من فرصه، لكن مع ذلك لا تُكلّف بالقيام بالعمل، وإنما يكلف الرجل، فإذا عجز الرجل، يكون هناك حديث آخر، وهو الاستثناء الذي سوف أشير إليه.

أما إرضاع الطفل، فالمرأة يجب عليها أن تقوم بالإرضاع والحضانة والرعاية للأطفال، وعندما تعجز يكون التكليف للرجل، وهذا من الاستثناءات.

نعم، قد يمكن للمرأة أن تأخذ أجراً على إرضاعها أو على حضانتها (كما يذكر الفقهاء) لكن، على أي حال، يجب عليها أن تقوم بهذا العمل، كما يجب على الطبيب أن يداوي المريض، ويجوز له أن يأخذ أجراً، فالمرأة أيضاً يجب عليها أن تقوم بهذا العمل، حتى لو كانت تأخذ أجراً عليه.

فنرى أن واجباً ما يكون على الرجل ولا يكون على المرأة، وبالعكس.

وهذه الواجبات ليست مرتبطة بالشخصية المتكاملة أو غير المتكاملة، وإنما الواجبات مرتبطة بتقسيم العمل، لأنه لا بد أن يُنجز العمل، فيقسم على الأفراد المشتركين المتصارعين، ويعطى للشخص بما تسمح به ظروفه البدنية أو الاجتماعية أو قدرته على الحركة أو أي شيء آخر، وتقسم الواجبات على أساس مثل هذه

فعلي عليه السلام قام بدوره وواجبه ومسؤوليته، والزهراء عليها السلام قامت أيضاً بالدور الذي يمكن لها أن تقوم به.

الإمكانيات الفعلية القائمة.

فالنظرية الإسلامية، فيما يتعلق بالحقوق والواجبات، ورؤية وجود التمايز أحياناً في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة، مرجعها إلى أنها تعتمد الاختصاص أساساً لتقسيم الواجبات والمسؤوليات، وتوزيعها على أفراد المجتمع، من أجل أن يتكامل المجتمع في حركته الجماعية.

وفي هذا التقسيم يأتي دور الاستثناء أحياناً فالرجل مكلف بالأصل أن يقوم بعملية الإنفاق، ولسبب من الأسباب يعجز أو يمتنع من القيام بهذا العمل، عندئذ يقوم به الجانب الآخر، وهذا أيضاً يؤكد النظرية الإسلامية، فعندما يعجز الرجل مثلاً عن الإنفاق على الأطفال يتوجه التكليف إلى المرأة فتصبح الأم مسؤولة عن الإنفاق على الأطفال إذا كانت متمكنة.

وهذا الأمر نفسه في الأعمال الاجتماعية العامة والسياسية وحتى في الجهاد عندما يكون الرجل عاجزاً عن القيام بالعملية الجهادية، عندئذ تتحول المسؤولية إلى المرأة التي لا يجب عليها الجهاد مع وجود الرجل، فتصبح مسؤولة أن تقوم بالجهاد..(المؤلف).

وكل منهما قام بدوره بنفس المستوى من الصلابة والصمود والصبر والتحمل من أجل الوصول إلى الأهداف الشريفة النبيلة التي كانا يسعيان إليها، ولولا موقفهما عليهما السلام آنذاك لم يكن من الممكن اتضاح الحقيقة لنا عبر التأريخ، ووصولها إلينا بهذا الوضوح الذي وصلت فيه إلينا.

مظلومية الزهراء عليها السلام

تمهيد

تارة يتعرض الإنسان إلى المظلومية باعتبار وجود الظالمين الذين يعملون على تعميم الظلم على الناس، كالطغاة والمستبدين الذين يأتون إلى الحكم فيظلمونهم ويقتلونهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1] وهؤلاء - المظلومون - لهم كرامة عند الله وأجر وثواب على اختلاف مراتبهم.

وتارة يكون هناك نوع آخر من المظلومية يتعرض لها الإنسان، وذلك عندما يدافع عن الحق وعن المظلومين، فالمستضعفون الذين لا يخضعون إلى الظالمين، ولا يستسلمون لهم، وإنما يكونون في موضع دفاع عن الحق، وإقامة العدل، يتعرضون للظلم بسبب هذا الموقف، ولولاه قد لا يتعرضون إلى الظلم، وقد يكون لهم وضع أفضل في حياتهم ومعيشتهم.

وهذا النوع من المظلومية هو الذي يمثل الشهادة عندما نتحدث عن الشهداء، والشهادة في تأريخ الإنسانية، وهذه المظلومية هي التي يكون لها أثر في مجرى حياة الإنسان، ومجرى التأريخ، ويكون لها التأثير في إيجاد التحولات والتغيرات الاجتماعية في المجتمع الإنساني، ومن هذه المظلوميات، مظلومية الزهراء عليها السلام.

سلاح المظلومية

المظلومية عنوان من العناوين التي نقاتل بها، وقد قاتل أهل البيت عليهم السلام بالمظلومية.

---

(١) القصص: ٤.

وإذا أحصينا الذين قاتلوا من أهل البيت عليهم السلام بالسيف، نجد أنه عدد محدود، وهم الإمام علي، والإمام الحسن، في بعض مراحله، والإمام الحسين عليه السلام، أما بقية أهل البيت عليهم السلام فلم يعرف عنهم أنهم قاتلوا بالسيف، وإنما قاتلوا وجاهدوا بالمظلومية.

إن قضية المظلومية تدخل ضمن التصور الإسلامي، لا في الحركة السياسية والجهادية فحسب، وإنها قضية طُرحت منذ بداية تأريخ الإنسانية، فعندما نرجع إلى القرآن الكريم ونقرأ قصة ابني آدم بتأمل، نجد هذا الجانب من المظلومية عندما خاطب هابيل أخاه قابيل قائلاً: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[1].

فالمظلومية هي الخطاب الأول الذي خاطب به هابيل قابيل، وجرت هذه المظلومية على كل الرجال والنساء الذين جاهدوا في هذا الطريق.

ولا ينبغي أن نفهم المظلومية كما يفهمها بعض السذج من الناس، على أنها قضية بكاء ونحيب وإثارة مشاعر فقط، ومن ثم نجد أن بعض الناس يتساءلون، إلى متى هذا البكاء والنحيب؟ وإلى متى هذه المشاعر؟ لابد أن يتوقف البكاء والنحيب، وإذا كانت القضية تألماً لأحداث وتفاعلاً معها فلابد أن يقف هذا الأمر عند حد.

إذا كنا نحن لا نملك مشاعرنا لأننا أُناس ضعفاء مساكين نتأثر، ولا توجد عندنا تلك الإرادة والروح القوية، أو النَفَس الإلهي القوي، بحيث نملك مشاعرنا، فما هو تفسير موقف أهل البيت عليهم السلام؟ فالإمام السجاد عليه السلام كان على درجة عالية جداً من ضبط المشاعر والعواطف والأحاسيس، ولكن ما

---

(١) المائدة: ٢٨.

كان يرى منظراً يذكّره بحادثة كربلاء إلاّ ويبكي، وعندما يقدم له الأكل والماء يبكي[١].

فالإمام زين العابدين عليه السلام كان قادراً على ضبط عواطفه ومشاعره، وليس شأنه شأننا فلماذا لم يضبط مشاعره وعواطفه؟

إذن، قضية المظلومية والبكاء والمشاعر ليست تنفيساً عن العواطف والأحاسيس، التي يشعر بها الإنسان تجاه الأعمال السيئة والخبيثة والوحشية التي واجهها أهل البيت عليهم السلام فحسب، حتى لو كان هذا التنفيس نبيلاً وصحيحاً، ويعبر عن طهارة النفس ونقاوتها، فالبكاء يربي النفس وينقيها ويجعلها طاهرة نظيفة تحس بقضايا العدل والظلم، ولا تكون قاسية، فعندما يقسو القلب لا يهتدي الإنسان إلى سبيله، وإنما لها مدلول آخر مهم جداً[٢]، وكل واحد عندما يتأمل في أبعاد مظلومية

---

(١) راجع: مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب: ٣: ٣٠٣.

(٢) ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا تعقد هذه المجالس للزهراء عليها السلام بهذا الحجم، وبمناسبات ثلاثة، حيث إنه لا تعقد مجالس متعددة في مناسبات وفيات باقي الأئمة عليهم السلام، ولا حتى جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله، مع أنه توجد روايات متعددة في تعيين وفياتهم، بالرغم من ظروف قتل الإمام الحسن عليه السلام فهي قضية معروفة الزمان والمكان.

وعندما نرجع إلى التأريخ، نجد أن كثيراً من الروايات تذكر أياماً متعددة لوفيات أهل البيت، لكن مع ذلك يختار شيعتهم يوماً معينا لإحياء المناسبة، ففي هذا البلد - مثلاً - يختارون يوماً، وفي بلد آخر يختارون يوماً آخر، وبمجدون ذكرى ذلك الإمام.

أما الزهراء عليها السلام، فنجد أن هناك عدة أيام تُختار لإحياء ذكراها، وبعضهم يحل ذلك باعتبار أن يوم وفاتها غير مشخص، وقد ذكرت أن تأريخ وفاة بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام غير مشخص أيضا، ومع ذلك لا يوجد هذا اللون من التكريس، أما الزهراء عليها السلام فهناك قصد وتخطيط لتكريس هذه الحادثة، باعتبار أنها الأولى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله التي تعبر عن هذه المظلومية، وفيها مدلول سياسية في البحث السياسي التاريخي..(المؤلف).

الزهراء يجد أمامه آفاقاً كثيرة جداً.

فإذا لاحظنا الجانب الاجتماعي للزهراء فإنها عليها السلام فقدت أعز الناس، وهو: رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا موقع اجتماعي عظيم جداً، والمصيبة برسول الله صلى الله عليه وآله عظمى، خصوصاً على الزهراء عليها السلام؛ لأنها ابنته، وعلى درجة عالية من الإيمان والفهم لطبيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وموقعه، ومن ثَمّ فهي تفهم أبعاد هذه المصيبة بكل خصائصها وعمقها الكامل وآثارها، فهذه المرأة تكون مظلوميتها بدرجة أن تُمنع من البكاء على رسول الله صلى الله عليه وآله[1]، ثم بعد ذلك يُعتدى عليها.

التصور الإسلامي للمظلومية

يبدو من خلال مراجعة القرآن الكريم، أن طرح قضية المظلومية من الخطوط الرئيسية التي استخدمها القرآن، والرسالات الإلهية قبل القرآن الكريم، وكذلك أئمة أهل البيت عليهم السلام كخط يؤدي إلى تحقيق الأهداف المقدسة، التي تسعى إليها الرسالات الإلهية.

ومن هنا يمكن أن نعرف أن طرح المظلومية والحديث عنها ليس قضية استدرار للدموع، وإثارة للمشاعر فحسب، وإن كان ذلك من المواضيع المستهدفة في طرح المظلومية، ولا نريد أن نستهين بالمشاعر والعواطف، وإنما هناك أمور مهمة وراء طرح المظلومية تمثل الخط الرئيس الثابت في حركة الرسالات الإلهية، وفي عمل وحديث أهل البيت عليهم السلام.

وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا ما نلاحظه من تأكيد أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم من بعدهم على موضوع المظلومية.

---

(١) الخصال: ٢٧٣: ح ١٥، وأمالي الصدوق: ٢٠٤: ح٢٢١، وعنهما البحار: ٤٣: ١٥٥: ح١.

فهناك ظاهرة واضحة في حديث أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم ومنهجهم، وعند أتباعهم ألا وهي ظاهرة التأكيد على المظلومية[1].

وإذا قارنا بين ما تبقى من الأديان السماوية من خلال الشعوب المرتبطة بهذه الأديان، وكذلك لو قارنا بين المسلمين أتباع المدارس والمذاهب الأخرى، وبين أتباع أهل البيت عليهم السلام، لوجدنا أن هناك تميّزاً واضحاً لشيعة أهل البيت عليهم السلام في هذا الجانب، فهم دائماً يتحدثون ويعقدون المجالس، ويقيمون الشعائر ويحيون المناسبات، وتكاد تتحول المظلومية إلى ظاهرة من الظواهر الواضحة في مسيرة شيعة أهل البيت عليهم السلام، حتى أن البعض يعيب على شيعة أهل البيت عليهم السلام بأنهم حوّلوا كل حياتهم إلى بكاء ونحيب وعزاء، وبيان للمظلومية.

ولو أخذنا المسيحيين الذين يشكلون قسماً كبيراً من أتباع الرسالات الإلهية - كمثال على ذلك - فإن لديهم حادثة - بحسب تصورهم ومعتقداتهم ولها جانب من الصحة، ولكن ليس في كل تفاصيلها - وهي مظلومية: المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فهم يعتقدون بحادثة الصلب. إذ أنهم يعتقدون أن المسيح قد تعرض إلى الاعتقال، ثم التعذيب، ثم بعد ذلك إلى الصلب، وهذا الاعتقاد ليس صحيحاً؛ لأن الرومان عندما جاؤوا ليقبضوا على المسيح أنجاه الله سبحانه وتعالى منهم، ورفعه إلى السماء، وشُبِّه لهم بشخص آخر، فاعتقل وتعرض إلى العذاب ثم الصلب، فالذي صلب هو شبيهه عليه السلام لا المسيح نفسه.

---

(١) روي عن أبي الله عليه السلام أنه قال: ((تجلسون وتتحدثون، قال: قلت جعلت فداك، نعم، قال: ان تلك المجالس احبها فاحيوا أمرنا انه من ذكرنا وذكرنا عنده فخرج من عينه مثل جناح الذبابة غفر الله ذنوبه ولو كانت اكثر من زبد البحر)). ثواب الأعمال: ١٨٧.

ولكن على كل حال هذه الحادثة - بحسب معتقداتهم - تمثل مظلومية كبيرة جداً لنبي من أنبياء الله، فهم يحيون هذه المناسبة بما يسمى بـ(عيد الفصح) ويقيمون مراسم كثيرة، لكن طابعها العام ليس طابع الحزن، إلا في دائرة ضيقة جداً عند المتعبدين بالمسيحية.

أما الطابع العام الذي يمارسه المسيحيون فهو طابع العيد، ولذلك يعبرون عنه بـ(عيد الفصح)، ويحيون المناسبة بالتعبير عن شيء من التمجيد للمسيح، لكن لا بطابع إبداء المظلومية والحزن والبكاء والنحيب وما أشبه ذلك، مما يمارسه أتباع أهل البيت عليهم السلام تجاه الإمام الحسين عليه السلام أو تجاه السيدة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، أو تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله، أو بقية أهل البيت عليهم السلام الذين تعرضوا جميعاً للأذى والمحن والمظلومية.

سبب الاهتمام بالمظلومية

ومن هنا نعرف لماذا اهتم أئمة أهل البيت عليهم السلام بالحديث عن مظلومية الزهراء والحسين عليهما السلام، ولماذا اهتموا بالحديث عن مظلومية الأئمة كلهم، بحيث أصبحت - المظلومية - إحدى الشعارات المهمة المطروحة في منهج أهل البيت عليهم السلام ومنهج أتباعهم، حتى قيل: إن هذه الجماعة، لا شأن لها إلا البكاء والحزن والنحيب، والحديث عن الآلام والمحن، وكأن هناك منهجاً يسير عليه أهل البيت عليهم السلام في الحديث عن موضوع المظلومية، وان مظلومية الزهراء والحسين عليهما السلام أصبحت رمزاً لهذا المنهج العام.

لمعرفة سبب الاهتمام بموضوع المظلومية، لابد من الإشارة إلى نقطتين رئيسيتين مهمتين، لعلهما كانتا من أهداف أهل البيت عليهم السلام في التركيز على المظلومية، ونلاحظ أن السيدة الصديقة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام حاولت أن تهتم بهاتين النقطتين:

النقطة الأولى: إن المظلومية هي إحدى الوسائل الواضحة البسيطة التي يمكن أن يستخدمها الإنسان لإثبات الحق؛ لأن الظلم يعبر عن وجود حق وعدل في جانب، ووجود باطل وظلم في جانب آخر، فالحديث عن المظلومية وتوضيحها وسيلة من الوسائل البسيطة، بمعنى: إنها سهلة الوصول إلى عقول الناس ومشاعرهم ووجدانهم، دون حاجة إلى تأمل وتدقيق وبحث وبذل جهد. فعندما تبين المظلومية يصبح الحق واضحاً.

وإذا بدأنا من الزهراء الصديقة الطاهرة عليها السلام، التي بدأت منها هذه المسيرة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله، ونرى ما توصل إليه مذهب أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم في هذا الخط البياني لهذه المسيرة، منذ بدايتها وحتى يومنا الحاضر، نجد أن هذا الخط كان دائماً في تصاعد، وسوف يستمر بالصعود حتى يظهر مهدي أهل البيت عجل الله فرجه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، ويحقق الانتصار الكامل، ويقيم حكومة العدل المطلق في الأرض.

النقطة الثانية: إن المظلومية أفضل طريقة لتعبئة الطاقات المحركة للإنسان، وتلك الطاقات تتمثل في عنصرين رئيسيين هما:

العنصر الأول: عقل الإنسان، بما يراه من مصالح وهدى وصلاح، وبالتالي فإنه - بحسب طبيعته - يتحرك نحو الأصلح، وما يمثل الطريق الواضح والهدى والصلاح.

العنصر الثاني: المشاعر والعواطف في نفس الإنسان، والتي تكون فاعليتها أحياناً أكبر من فاعلية العقل، بل يمكن أن يقال: إن الطاقة الحقيقية المحركة للإنسان إنما هي العواطف والمشاعر والأحاسيس،

والعقل دليل الإنسان للطريق، فهي كالوقود الذي يمثل الطاقة المحركة للسيارة.

فهذه العواطف والمشاعر لها دور عظيم جداً، ولذلك فان استدرار الدموع وإثارتها أمر مستهدف؛ لأنه يمثل تعبئة الطاقة المحركة الحقيقية الموجودة في داخل الإنسان باتجاه الحق والهدى والصلاح.

والمظلومية أفضل طريق لإثارة هذه المشاعر والعواطف. وقد استخدمت بعض المدارس المادية هذا الطريق، فأحد الأساليب التي استخدمتها الماركسية لتعبئة الطاقات هو التأكيد على حالة المظلومية، أي: مظلومية الطبقة العاملة المسحوقة، وطبقة الفلاحين، وإثارة هذا الجانب فيهم، حتى تحوّل إلى طاقة محركة للناس في مقابل القوى التي كانت تهيمن عليهم.

لذا فان إثارة المشاعر قضية مهمة جداً، والمظلومية في الوقت الذي تهدي إلى الحق، لها دور في إثارة مشاعر الناس وجعلهم قادرين على أن يتحركوا من أجل إحقاق الحق، والوصول إلى الأهداف النبيلة التي وضعوها أمام أعينهم.

تساؤلات حول ظاهرة المظلومية

عند استعراض القرآن الكريم لتأريخ الأنبياء يشير إلى تعرضهم للأذى والمحن والمصاعب والظلم من قبل أقوامهم، فقد تعرض نوح عليه السلام للسخرية والمضايقة والمطاردة[1]، كما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، فجعلها الله سبحانه وتعالى برداً وسلاماً، ثم طُرِدَ فاضطر إلى أن

---

(١) هود: ٣٨.

يهاجر إلى فلسطين، ويترك قومه وأهله وبلده[1] وقد تعرض موسى عليه السلام للأذى، ثم تعرض بنو إسرائيل للمحن والآلام، وهكذا جميع الأنبياء حتى وصل الأمر إلى نبينا محمد صلى الله عليه وآله، حيث تحدث القرآن الكريم عن آلامه ومحنته، وما كان يتعرض له من أذى، سواء في الدور الأول لرسالته في مكة، أم في الدور الثاني للرسالة في المدينة.

لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله في المدينة حاكماً وقائداً لدولة، ورئيساً لأمة، مضافاً إلى نبوته وإمامته، وكان يمارس هذه الإمامة من الناحية الواقعية والخارجية، ومع كل ذلك كان يتعرض للأذى، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[2] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[3]، إلى غير ذلك مما نراه في القرآن الكريم من إشارة إلى ظاهرة المظلومية. وكما تقدم فقد اهتم أئمة أهل البيت عليهم السلام بالحديث عن المظلومية، بحيث أصبحت - المظلومية - إحدى الشعارات المهمة المطروحة في منهج أهل البيت عليهم السلام ومنهج أتباعهم، حتى قيل: إن هذه الجماعة، لا شأن لها إلا البكاء والحزن والنحيب، والحديث عن الآلام والمحن، فهل تفسير ذلك أن هذه الجماعة انكفأت على نفسها، وانطوت على وجودها، فأخذت تذكر الآلام والأحزان والمحن والعواطف؟ كما يحاول أن يفسر هذه الظاهرة بعض أعداء أهل البيت عليهم السلام، وأعداء شيعتهم، الذين يحاولون أن يطعنوا في منهجهم بهذا

---

(١) الأنبياء: ٦٩ و٧٠ و٧١ و٧٢.

(٢) التوبة: ٥٨.

(٣) التوبة: ٦١.

الشكل من الحديث.

أو كما يحاول بعض الأصدقاء من داخل البيت الولائي والإيماني، فيتصور أن العملية بهذا الشكل، ومن ثَمّ يحاول أن يخرج من هذا الانكفاء والانطواء على النفس لينطلق في الحياة، ويتعايش مع المجتمع الإنساني.

فكل من الموقفين، سواء كان ذلك الموقف المعادي الذي ينطلق من العداء، أم هذا الموقف الداخلي الذي ينطلق من الحرص على القضية أو الجماعة أو على الأئمة، يشترك في تفسير واحد، وهو: إن هذه الظاهرة هي ظاهرة إنطواء على النفس.

فهل إن القضية بهذا المعنى، أو أن لها معنى آخر؟

وقد حاول البعض في تفسيره لهذه الظاهرة بأنها عبارة عن تأجيج روح الانتقام والشعور بالرفض والمقت للظلم الذي جرى على أهل البيت عليهم السلام، وإن أفضل طريق لتأجيج روح الانتقام هو التركيز على الأحزان والمظلومية، كما يصنع بعض الناس عندما يُقتل منهم قتيل، فيحاولون أن يتذكروا ذلك القتيل ليؤججوا في نفس أبناء العشيرة العواطف للانتقام له والأخذ بثأره.

وأن هذه القضية بدأت مرحلياً بهذا الشكل ثم تعمقت في تأريخ أتباع أهل البيت عليهم السلام، دون أن ينتبهوا إليها؛ لأن الأئمة عليهم السلام في البداية أرادوا أن ينتقموا من أولئك الذين ظلموا الزهراء عليها السلام، ومن الأمويين الذين قتلوا الحسين عليه السلام، فبدأوا بهذه الطريقة لتأجيج روح الانتقام في وسط أتباعهم، وفي وسط المسلمين، وهكذا تحقق هذا الانتقام في ثورة التوابين، وفي ثورة المختار، وغيرهما من الثورات، ولكن الأمر خرج من

يد أئمة أهل البيت عليهم السلام، فأصبحت الظاهرة ذات طبيعة اجتماعية يتأثر فيها وسط هذه الجماعة، وخرجت عن منهجيتها وظروفها الخاصة.

هكذا يحاول بعض الناس أن يفسر هذه الظاهرة، ومن ثَمّ يقول: إن هذا المنهج كان منهجاً مرحلياً يرتبط بزمان معين، ولكنه خرج من يد أهل البيت عليهم السلام، وتحول إلى ظاهرة ثابتة وباقية بسبب حالة التخلف، أو الابتعاد عن فهم التأريخ، وسقط أتباع أهل البيت عليهم السلام في هذا الموضوع.

وهذا التفسير يقول به الأعداء؛ من أجل أن يطعنوا بهذه الجماعة ويؤذوها، ويقول به - أحياناً - الأصدقاء من داخل البيت الشيعي في مقام تفسير ظواهر الجماعة وإخراجها من حالتها - حالة السقوط في الاجترار للآلام والأحزان - والانطلاق إلى العالم؛ لأن بعض الناس يتصور أن الوقوع في هذا الأمر سوف يؤدي إلى محاصرة جماعة أهل البيت عليهم السلام.

فهل إن قضية الاهتمام بهذه المظلومية ينطلق من هذا المنطلق، وهو: ترسيخ عاطفة الانتقام للزهراء عليها السلام والإمام الحسين عليه السلام، وأخذ الثأر لهما؟

التفسير الصحيح للظاهرة

إن هذا المنهج - إبراز المظلومية - من المناهج الثابتة لأهل البيت عليهم السلام، بل هو من المناهج الثابتة في الرسالات الإسلامية الإلهية[1]، وهو منهج قرآني ثابت في كل الرسالات الإلهية، وقد جسده أهل البيت عليهم السلام في

---

(١) لأن كل الرسالات الإلهية يمكن أن نعبر عنها بأنها رسالات إسلامية: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾، والإسلام هو: اسم لرسالة التوحيد..(المؤلف).

قضيتين مهمتين:

إحداهما: ذات طبيعة داخلية ترتبط بصورة أساسية بالجماعة المؤمنة وخصائصها وظروفها ومكوناتها ومقوماتها، وهي: قضية الزهراء عليها السلام.

والأخرى: قضية ذات بعد واسع يرتبط بالمسلمين وبالبشرية كلها، وهي: قضية الإمام الحسين عليه السلام.

وهذه القضية ذات طابع ثابت ودائم، أو كما يعبر عنه في المصطلحات الحديثة (ستراتيجي).

وهذا البحث يحتاج إلى حديث واسع، ولكني أُشير إلى بعض معالمه، منها:

إن هذا المنهج منهج ستراتيجي؛ لأن المستضعفين عندما يمرون بحالة الاستضعاف السياسي والاجتماعي، لا يملكون في مواجهة الاستبداد والظلم إلا هذا المنهج، وهو: منهج الحديث عن المظلومية، وتأجيج العواطف والمشاعر في نفوس الناس، ومخاطبة الفطرة عندهم لتوجيههم نحو الحق الذي يسعى إليه هؤلاء المستضعفون، وإيجاد التغيير الاجتماعي على أساس هذا المنهج.

ونشير في هذا المجال إلى ما قام به نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، حيث إن الأنبياء أولي العزم بينوا هذا المنهج؛ لأنهم كانوا يعيشون حالة الاستضعاف الاجتماعي، الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1]، حيث إن القرآن الكريم يذكر هذه الآية ويشير

---

(١) القصص: ٥.

إلى المظلومية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]، فهو يصور حالة الظلم والطغيان والاستبداد والمظلومية التي كان يعيشها بنو إسرائيل، وبعد هذه الآية يقول القرآن الكريم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

إذن، فهذا منهج يتبعه القرآن الكريم في حالة الاستضعاف، وهو - أيضاً - منهج في حالة التمكين في الأرض لا في حالة الاستكبار - والعياذ بالله - فالاستضعاف الاجتماعي في مقابله حالة التمكين للمؤمنين: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2].

وإنما أُعبر عن ذلك بالاستضعاف الاجتماعي؛ لأن حالة الاستضعاف طُرحت في القرآن الكريم بمعنيين: الاستضعاف الاجتماعي، والاستضعاف الروحي والنفسي: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[3]، هذا النوع من الاستضعاف هو الاستضعاف النفسي والروحي، وفي مقابله الاستكبار، وأما الاستضعاف الاجتماعي فيقابله التمكين للمؤمن في المجتمع.

فالحديث عن المظلومية هو منهجٌ للمستضعفين عندما يريدون أن يحققوا التغيير، ويصلوا إلى حالة التمكين، ولكنه ليس منهجاً وحيداً،

---

(١) القصص: ٤.

(٢) الحج: ٤١.

(٣) النساء: ٩٧.

وإنما هو بديل لمنهج استخدام القوة؛ لأن المتمكن في الأرض يملك القوة، ومن ثَمَّ فهو يتمكن أن يصل إلى هدفه من خلال القوة، واستخدام الإمكانيات التي يملكها للوصول إلى الهدف.

والقرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام يشيرون إلى أنه عندما يكون أمام المتمكن خيار استخدام القوة للوصول إلى الهدف، أو خيار استخدام الحكمة والموعظة الحسنة، والحديث عن المظلومية، بمعنى الحديث عن الحق والباطل، والحديث عن الظلم والعدل، فهذا المنهج إذا كان يوصل إلى الحق واستخدام القوة يوصل إلى الحق أيضاً، فالقرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام يرون أن الطريق الصحيح، والمنهج الصحيح هو أن نستخدم منهج المظلومية، بمعنى الحديث عن الظلم والعدل، بالحكمة والموعظة الحسنة، والتأكيد على هذا الجانب من أجل الوصول إلى الحق، وإن كان الإنسان قادراً على أن يصل إلى الحق بالقوة.

وهذا منهج بديل، وإنما أعبر عنه بأنه منهج بديل، بمعنى أنه منهج يتخذ الأولوية في التمكين في الأرض، ولكن عندما لا يصل الإنسان في هذا المنهج إلى إقامة الحق والعدل، فيمكنه عندئذ أن يستخدم القوة في الوصول إلى ذلك.

وهذا جانب آخر في البحث يفسر هذه الظاهرة التي عرفت عن أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، وهي ظاهرة الحديث عن مظلومية الزهراء عليها السلام، والإمام الحسين عليه السلام بصورة خاصة، ثم الحديث عن مظلوميتهم بصورة عامة.

مناشئ وضوح مظلومية الزهراء عليها السلام

هناك عدة مناشئ وراء وضوح مظلومية الزهراء عليها السلام، منها:

أولاً: الظلم عندما يقع على المرأة يكون تأثيره في نفوس الناس أكبر

من الظلم الذي ينزل بالرجل، خصوصاً إذا كان الرجل في معرض التعرض للظلم والأذى، باعتبار التصدي للعمل والجهاد والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وما أشبه ذلك مما يتصدى له الأنبياء والأولياء والأوصياء، فيتعرضون - عادة - للظلم بسبب هذا النوع من التصدي في العملية الاجتماعية.

أما عندما ينزل الظلم بامرأة ليس لها تَصدٌ عام، ولم تدخل في عملية الصراع، وهي جليسة البيت، فسيكون تأثير ذلك في نفوس الناس أكبر، ويكون تجاوبهم معه أكثر.

ثانياً: إن الزهراء عليها السلام أقرب الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله، وهي البقية الباقية له صلى الله عليه وآله، هذا الرسول الذي قال بلسان القرآن الكريم: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[1]، وليس هناك أقرب لرسول الله صلى الله عليه وآله من الزهراء عليها السلام.

ثالثاً: طهارة الزهراء عليها السلام وفضلها وزكاتها وخصوصياتها المعنوية، إلى غير ذلك مما يذكر من معالم تكاملية.

رابعاً: الطبيعة الوحشية للاعتداء عليها عليها السلام، فالزهراء عليها السلام امرأة شابة، عمرها ثماني عشرة سنة، وذات أطفال، وفقدت أباها الذي هو خير البرية، وفي مثل هذه الظروف الحرجة يتم الاعتداء عليها بطريقة وحشية، ويُهجم على دارها - وهذا مما لا شك فيه - ثم تلطم لطمة تحقير وإهانة، وتضرب ضربة تعذيب وإيذاء، ثم بعد كل ذلك، تضرب ضربة تؤدي إلى قتلها وشهادتها، ويقتل مَنْ في بطنها.

---

(١) الشورى: ٢٣.

فهذه الأفعال الوحشية التي مرت على الزهراء عليها السلام لا يوجد لها نظير في التأريخ. وهذا ما حدث للإمام الحسين عليه السلام حيث إن الرجال يقتلون، وقد قتل الإمام علي عليه السلام وحمزة وغيرهما من الرجال الصالحين، كل هذا يحدث، أما أن يقتل عطشاناً، ثم يذبح من القفا، ويداس بحوافر الخيل، وتحرق خيامه، ويشرد أطفاله في الصحراء، وتسبى عياله، فهذا مما لا يعرف له نظير في التأريخ.

لقد تعرض الإمام الحسين عليه السلام لمثل هذه الفضائع بعد أن أمر بذلك عمر بن سعد بن أبي وقاص، وأبوه سعد بن أبي وقاص فاتح العراق، وأحد الستة المرشحين في الشورى، وأحد العشرة المبشرة بالجنة - كما يدّعون - وهو شيخ القرشيين في الكوفة في ذلك الوقت، لقد أصدر عمر بن سعد هذا الأمر الوحشي الدنيء القبيح، ومثل هذه القضايا لا بد أن نفهم مداليلها.

فالظلامات التي تعرضت لها الزهراء عليها السلام، وتعرض لها الإمام الحسين عليه السلام لهما مداليل كثيرة من الناحية الروحية والمعنوية، والسقوط الأخلاقي والمعنوي والسياسي[1].

وقد ركز أهل البيت عليهم السلام على ظلامتين دون بقية الظلامات، باعتبار أهميتهما، فقد تحدثوا عن ظلامة النبي صلى الله عليه وآله، وظلامة الإمام علي عليه السلام، وظلامة الإمام الحسن عليه السلام، وظلامة بقية الأئمة عليهم السلام، ولكنهم ركزوا على ظلامتين رئيسيتين، هما: ظلامة الزهراء، وظلامة الإمام الحسين عليهما السلام.

---

(١) وهذه القضايا يمكن أن يأخذ الإنسان عبرة منها، بقطع النظر عن التفاصيل الصغيرة التي تأتي من هنا وهناك..(المؤلف).

معالم مظلومية الزهراء

ومعالم مظلومية الزهراء عليها السلام كثيرة وعديدة، وسأقتصر على معلمين لهما أهمية كبيرة في مظلوميتها عليها السلام:

المعلم الأول: شهادة المحسن عليه السلام

إن المحسن يمثل الذرية الصالحة لرسول الله صلى الله عليه وآله، فهو السبط الثالث له صلى الله عليه وآله، والكوثر الذي وعد الله به رسوله بقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ◆ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[1]، هو الذرية الصالحة، وهم ذرية الحسن والحسين عليهما السلام الذين ينتشرون الآن في أقطار الأرض، والذين كان لهم الدور العظيم في حفظ الإسلام، والتراث الإسلامي، فلو كان هناك خط آخر ينتسب إلى المحسن لكانت الفائدة أكبر.

فالذين ارتكبوا هذه الجريمة حرموا العالم الإسلامي من آثار وفوائد ومنافع كبيرة، وبعض الناس يقولون: إن المحسن سقط، وكثير من النساء يُسقطن.

طبعا القضية ليست كذلك؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي سماه محسناً في كثير من النصوص[2]، ولذا تأخذ المسالة أبعاداً أخرى.

قضية المحسن تُثبت ظُلامة الزهراء عليها السلام، وكان من الممكن أن يمحى كل شيء من معالم مظلوميتها عليها السلام، لكن أن يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، كما قتل الحسين عليه السلام، فهذا ما لا يمكن التغاضي عنه، ولا مجال للسؤال والتدارك. فالإمام الحسين عليه السلام قتل في قضية واضحة وأمام الناس،

---

(١) الكوثر: ١ و٢.

(٢) بيت الأحزان: ١١٨ والإمام علي: ٧١٠.

والمحسن كذلك قتل، والزهراء عليها السلام لم تقتل في ساحة المواجهة، لكن كان هناك من استشهد في هذه المعركة[1].

المعلم الثاني: إخفاء قبر الزهراء عليها السلام

كما أن قبرها عليها السلام كان ولا زال مخفياً وغير واضح، وإن كانت هناك بعض النصوص تؤكد أنها عليها السلام دفنت في بيتها، ومن ثم إلى جوار قبر أبيها، ولكن - على أقل تقدير - بقي قبرها إلى حين ظهور هذه النصوص مخفياً، هذا إذا كانت تلك النصوص مطابقة للواقع، فبعضها قد يكون معتبراً، ولكن يبقى احتمال خطئها قائماً في أخبار الآحاد حتى لو كان الآحاد من الثقات.

ولكن إذا أخذنا أيضاً بمضمونها تبقى هذه الإثارة قائمة، وهي: إن قبرها بقي مخفياً إلى زمن الإمام الصادق عليه السلام الذي صدرت منه هذه النصوص.

مع أن الظروف التي أحاطت بشهادتها تختلف عن الظروف التي أحاطت بشهادة الإمام علي عليه السلام الذي قتله ابن ملجم، وتغيرت الأوضاع السياسية بنحو كان هناك خطر على جثمانه، فلو كان معروفاً بين الناس لكان الخطر يتوجه إليه أولاً من قبل الأمويين الذين لم يكونوا يتورعون عن القيام بمثل هذه الأعمال القبيحة الوحشية، وقد شاهد المسلمون جميعاً حالة الاستهتار بالحرمات والكرامات من الأمويين في

---

(١) وفي النظرية الإسلامية، أن الجنين له احترام، وليس كما في العالم الجديد الذي لا يحترم الجنين، فلو نظرنا إلى الفقه لرأيناه يحترم الجنين، كاحترامه الإنسان الكامل، ودينه كدينه، فكيف إذا كان هذا الجنين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله؟!..(المؤلف).

قضية شهادة الإمام الحسين عليه السلام ونهضته، حيث إنهم تجاوزوا كل الحدود والأصول والأعراف في موقفهم من الإمام الحسين عليه السلام، سواء في طريقة القتل أم انتهاك حرمة جثمانه الشريف، ثم انتهاك حرمات عياله.

إذن، فليس بعيداً أن يقوم الأمويون بمثل هذا العمل تجاه جثمان الإمام علي عليه السلام، فلذلك أُخفي جثمانه.

كما كان هناك خطر يتوجه لجثمانه عليه السلام من الخوارج أنفسهم، حيث إنهم في ذلك الوقت كانوا يبغضون الإمام علياً عليه السلام لما قام به من عمل واسع في تصفية وجودهم في معركة النهروان، والخوارج كانوا يسيطرون بين حين وآخر على منطقة الكوفة والعراق، وكان لهم نفوذ كبير في هذه المنطقة.

لذا فإن الهدف من التكتم وإخفاء جثمانه وقبره هو الحفاظ على حرمة الجثمان.

أما الزهراء عليها السلام فلم يكن هذا الكتمان بسبب احتمال صدور عدوان على الجثمان، وإنما كان من قبل الإمام علي عليه السلام من أجل أن تتضح مظلوميتها عليها السلام وموقفها من الحكم، حيث إن السياسة التي اتبعت في هذا المجال بعد استقرار الحكم وسيطرته الكاملة بالقوة على الأوضاع السياسية بعد النبي صلى الله عليه وآله هي محاولة إعفاء كل معالم الموقف الذي وقفه الإمام علي عليه السلام، ووقفته الزهراء عليها السلام مقابل قضية الخلافة أولاً، وتهدئة الخواطر العامة التي كانت تتحسس من موقف الزهراء ثانياً.

المظلومية بين الزهراء والحسين

تناول التأريخ والمتحدثون والخطباء والأدباء والشعراء المظلومية، ولكن يُلاحظ أن مظلوميتين رئيسيتين، يتم الحديث عنهما بصورة دائمة.

وهما: مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، ومظلومية الزهراء عليها السلام، فقد يتم الحديث عن بقية المظلوميات، لكن نلاحظ أن الحديث عن مظلومية الزهراء والحسين عليهما السلام - بصورة خاصة - يتم بصورة واسعة ومؤكدة ومتوالية، ولا تكاد تمر مناسبة من المناسبات التي يمكن أن يُتعرض فيها إلى المظلومية، حتى يتم التعرج على مظلومية الزهراء عليها السلام أو مظلومية الحسين عليه السلام.

فهل أن هاتين المظلوميتين كانتا أعلى وأعظم وأكبر من المظلوميات الأُخرى، أو ثمة سبب آخر؟

إن معرفة واقع ودرجة ومستوى المظلومية أمر يصعب الحديث عنه، بحيث نقول: إن مظلومية الزهراء عليها السلام كانت أكبر من مظلومية الإمام علي عليه السلام، أو أكثر من مظلومية أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله، أو إن مظلومية الإمام الحسين عليه السلام كانت أكثر من مظلومية الإمام الحسن عليه السلام، أو أكثر من مظلومية الإمام الحجة عجل الله فرجه الذي يتعرض إلى ظلم واسع في هذا التأريخ الطويل لحياته.

إن معرفة الحجم والدرجة والمستوى للمظلومية أمر يصعب الدخول والتحقيق فيه.

فلا أظن أن السبب في تناول هاتين المظلوميتين بصورة خاصة هو أن درجتهما أعلى من درجة المظلوميات الأخرى، وإنما السبب - كما يبدو والله العالم - هو أن هاتين المظلوميتين كانتا بدرجة عالية من الوضوح في الرؤية العامة للناس، وفي فهمهم لمعالم الظلم الذي نزل بالزهراء عليها السلام وبالإمام الحسين عليه السلام.

ولذلك يمكن أن يكون ذلك تفسيراً لاهتمام أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم بالحديث عن هاتين المظلوميتين، باعتبار تفاعل النفوس والعواطف

والمشاعر والعقول معهما، لوضوحهما في مساحة واسعة من الأمة.

فعندما نحلل مظلومية النبي ﷺ تحليلاً علمياً يفهمه الباحثون والمحققون، قد نصل إلى أن درجة مظلوميته أعلى، لكن ذلك لا يمكن أن يوضّح لعموم الناس، وإنما يفهمه المحققون فقط.

وكذلك لو أخذت مظلومية الإمام علي عليه السلام الذي تحدث عنها في الخطبة الشقشقية، فقال: ((**يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير**))[1]، قد تكون هذه المظلومية أعظم من مظلومية الإمام الحسين عليه السلام، لكن هذا الأمر لا يفهمه إلا الخاصة من الناس، أما عمومهم فقد لا يفهمون هذه الخصوصيات في هذه المظلومية.

لذلك فإن قضية الإمام الحسين عليه السلام إنما كان لها هذا الوضوح في تأريخ المسلمين ككل، لا في تأريخ أهل البيت عليهم السلام فقط بسبب المظلومية الواضحة؛ لأن قضية الإمام علي عليه السلام، والإمام الحسن والحسين وزين العابدين عليهم السلام، وهكذا بقية الأئمة من حيث كونها حقاً هي على درجة واحدة؛ هؤلاء كلهم على حق، وكلهم أئمة، ومواقفهم وحركتهم وشعاراتهم وما كانوا يتحدثون به كله حق.

فكما أن قضية الإمام الحسين عليه السلام حق، فكذلك قضية الإمام علي عليه السلام، والإمام الحسن عليه السلام، وكذلك باقي الأئمة.

لكن لماذا هذا الوضوح لدى جميع المسلمين في قضية الإمام الحسين عليه السلام، بحيث لا نكاد نجد وضوحاً يشابهه؟ مع أن الإمام علياً عليه السلام بحسب تأريخه، وما صدر عن النبي ﷺ في حقه من مدح وثناء وتأكيد لا يشبهه أي إمام آخر،

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١: ١٥١: خطبة٣.

ومع ذلك يوجد وضوح لدى المسلمين في موقف الإمام الحسين عليه السلام أكثر من الوضوح في بقية مواقف الأئمة عليهم السلام، على أنهم من الناحية الواقعية يتساوون في أصل الحق.

السبب الرئيس في ذلك هو المظلومية، أي: إن مظهر مظلومية الإمام الحسين عليه السلام كحالة ظاهرية واضح، بل أوضح من كل المظلوميات الأُخرى، التي تعرض لها بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين كانت مظلومياتهم واضحة، وأدى هذا الأمر إلى أن يصبح الحق في هذا الجانب أكثر وضوحاً منه في الموارد الأُخرى.

لذا فإن المظلومية وسيلة واضحة وسهلة في مقام التعبير عن الحق، وكانت المعركة التي يخوضها أهل البيت عليهم السلام طيلة فترة حياتهم هي معركة الحق، أي كيفية إثبات هذا الحق، وكيف يصبح أمراً واضحاً ثابتاً لدى المسلمين.

ولذلك نجد أن أهل البيت عليهم السلام قد نجحوا وانتصروا في هذه المعركة، بدليل أننا نرى هذا الحق في حالة ازدياد في الوضوح والانتشار والسعة، بالرغم من كل المشكلات والمصاعب والعقبات التي كانت تواجه مسيرته.

إذن، فوضوح المظلومية في الزهراء عليها السلام والإمام الحسين عليه السلام قد يكون هو السبب في هذا التأكيد على مظلوميتهما.

حزن الزهراء عليها السلام

تمهيد

إن الأيام الأخيرة من حياة الزهراء عليها السلام والتي قضتها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله كانت تتسم بمظاهر الحزن الشديد، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: ((**البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين... أما فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة، فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر، مقابر الشهداء، فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف**))[1]. وفي رواية أخرى عن الإمام علي عليه السلام انه قال: ((**غسلت النبي صلى الله عليه وآله في قميصه، فكانت فاطمة تقول: أرني القميص، فإذا شممته غشي عليها، فلما رأيت ذلك غيبته**))[2]. بل أن بعض الروايات تحدثت عن هذا الحزن وكأنه قد وصل إلى حالة الجزع[3]، مما دعى بعض المتحدثين والمتحذلقين في الكلام إلى الاعتراض على هذا الحزن، وأنه كيف يمكن لمثل هذه السيدة الجليلة أن تبكي ليلاً ونهاراً ولا تصبر، والصبر من شيمة أهل البيت عليهم السلام وصفاتهم في النوائب، وقد أمر القرآن الكريم بذلك حيث قال: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ**

---

(١) الخصال: ٢٧٢ - ٢٧٣: ح١٥.

(٢) بحار الأنوار: ٤٣: ١٥٧: ح٦.

(٣) مثل الرواية التي تذكر أن فاطمة عليها السلام عندما طلبت من بلال أن يؤذن، فأذّن، وعندما سمعت الأذان غشي عليها، حتى ظن القوم أنها ماتت. من لا يحضره الفقيه: ١: ٢٩٧: ح٩٠٧.

﴿الْمُهْتَدُونَ﴾[١]. هذا بالإضافة إلى وجود أحاديث صحيحة عن أهل البيت عليهم السلام تدل على حرمة الجزع، ومن هنا نرى أن للحديث عن حزن الزهراء عليها السلام بعدين: احدهما شرعي، والآخر تكاملي.

البُعد الشرعي لحزن الزهراء عليها السلام

يبدو من الروايات والنصوص المتظافرة التي لا يكاد يشك في مضمونها أحد، أن الزهراء عليها السلام قد حزنت بعد النبي صلى الله عليه وآله حزناً بحيث يمكن أن يصدق عليه من الناحية العرفية واللغوية بأنه وصل إلى حد الجزع[٢].

وهذه الظاهرة تحتاج إلى تفسير من ناحية الشريعة الإسلامية والحكم الشرعي.

ويمكن علاج الظاهرة من الناحية الشرعية بأن هناك نصوص تؤكد أن الجزع حرام، كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام (وقد عزّى الأشعث بن قيس عن ابن له): ((**يا أشعث إن تحزن على ابنك فقد استحقت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله من كل مصيبة خلف. يا أشعث، إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور. وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور**)). وعن الإمام الصادق عليه السلام: ((**اتقوا الله، واصبروا، فانه من لم يصبر أهلكه الجزع، وإنما هلاكه في الجزع انه إذا جزع لم يؤجر**))[٣].

نعم، إلاّ إذا كان الجزع على الإمام الحسين عليه السلام، فهو مستثنى من

---

(١) البقرة: ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) بحار الأنوار: ٤٣ : ١٥٧:ح٦ ومن لا يحضره الفقيه:١: ٢٩٧:ح٩٠٧.

(٣) بحار الأنوار: ٦٨: ٩٥: ح٥٨.

الحرمة الشرعية، فروي عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال:((**كل الجزع والبكاء مكروه سوى الجزع والبكاء على الحسين**))[١].

وإذا أضفنا إليها نصوصاً أخرى وردت عن أهل البيت عليهم السلام تشير إلى أن المصاب الذي أصيب به المسلمون بوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يعتبر أعظم مصاب عرفه التأريخ الإسلامي، بل التأريخ الإنساني، فهو أعظم من مصاب الإمام الحسين عليه السلام كما في قول الإمام الباقر عليه السلام: ((**إن أصبت بمصيبة في نفسك أو في مالك أو في ولدك، فذكر مصابك برسول الله صلى الله عليه وآله فإن الخلائق لم يصابوا بمثله قط**))[٢] فعندئذ يكون الجزع على مصاب رسول الله صلى الله عليه وآله أمراً جائزاً من الناحية الشرعية.

وهذا ليس من باب التفنن، وإنما هنالك نصوص[٣] شرعية تجتمع فيها الشروط المطلوبة في الاستنباطات الفقهية، التي يعتمد عليها العلماء عندما يريدون أن يستنبطوا حكماً شرعياً.

وهذه النصوص معتبرة بحسب مضامينها ودلالتها، وهي تدل على أن الجزع على رسول الله صلى الله عليه وآله أمر جائز، ولعل هذا أحد الأهداف التي كانت تستهدفها الزهراء عليها السلام في إظهار هذا الحزن والجزع[٤].

---

(١) الامالي: للشيخ الطوسي: ١٦٢.

(٢) الكافي: ٣: ٢٢٠: ح٢.

(٣) روي عن أمير المؤمنين انه قال على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله: ((**إن الصبر لجميل إلا عنك، وان الجزع لقبيح إلا عليك، وان المصاب لك لجليل، وانه قبلك وبعدك لجلل**)) شرح نهج البلاغة: ١٩: ١٥٩.

(٤) الجزع - بالتحريك - نقيض الصبر، يقال جزع الرجل جزعا من باب تعب فهو جزع، وجزوع مبالغة. مجمع البحرين: ١: ٣٧١. وروي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال:((**قلت له ما الجزع؟ قال: أشد الجزع الصراخ بالويل والعويل ولطم الوجه والصدر وجز**

البعد التكاملي لحزن الزهراء عليها السلام

وأما من ناحية الحالة التكاملية، فيمكن ملاحظة جانب يرتبط بمسألة مهمة جداً في النظرية الإسلامية، وهي: مسألة العاطفة، فالعاطفة تمثل أمراً تكاملياً في حركة الإنسان لا أمراً تسافلياً يُعبر عن ضعف شخصية الإنسان، كما يعتقد البعض، حيث ترى النظرية الإسلامية إن شخصية الإنسان ذات أبعاد متعددة، ففيها الجانب المادي الذي تهتم به الشريعة. وفيها الجانب الروحي والمعنوي، ومن مفردات هذا الجانب يوجد الجانب العاطفي.

وقد أهتم الإسلام في تشريع الأحكام الشرعية، بالتعبير عن الجانب العاطفي في حركة الإنسان، ولم يقمع هذا الجانب فيه، بحيث يصبح بلا عاطفة فيتحرك بعقله ومصالحه ومنافعه، ولا يكون للعاطفة أي دور وأثر.

وتوجد شواهد عديدة من القرآن الكريم على ذلك، منها: ما تحدث به القرآن الكريم عن علاقة الابن بالأب، فأشار إلى الواجبات العاطفية ضمن ما أشار إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[1].

فهذه ليست مسألة منافع، وأنه كيف ينفق عليهما؟ أو يجعلهما في حالة

الشعر من النواصي ومن أقام النواحة فقد ترك الصبر وأخذ في غير طريقه ومن صبر واسترجع وحمد الله عزوجل فقد رضي بما صنع الله ووقع أجره على الله ومن لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء وهو ذميم وأحبط الله تعالى أجره)). الكافي:الشيخ الكليني:٣: ٢٢٢.

(١) الإسراء: ٢٤.

من الراحة البدنية والمعيشية، أو في حالة الاحترام والتكريم بين الناس، من قبيل ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[١]، فهنا يشير القرآن الكريم إلى حالة التعامل معهما فلا بد أن يكون تعامل احترام، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾[٢].

فالمسألة هنا هي الاحترام والتكريم والوضع الاجتماعي.

وأما عندما يقول: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، فهنا يتحدث عن موضوع الرحمة.

وهكذا بالنسبة للعلاقة بين الزوجين، حيث أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[٣]، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٤]، وهذه المودة والرحمة من الأمور المطلوبة في العلاقة الاجتماعية القائمة في حركة الإنسان.

وثمة رواية ذات مضمون وجداني وردت عن النبي ﷺ وهي: إن النبي ﷺ كان في مجلس، وفيه أحد شيوخ القبائل[٥] وقد دخل الإسلام حديثاً، فدخل الحسن عليه السلام وكان صبياً، فاستقبله رسول الله ﷺ وأخذ يقبله، ووضعه في حجره، فتجهم وجه الشيخ؛ لأنه يرى أن رسول

---

(١) الإسراء: ٢٣.

(٢) الإسراء: ٢٣.

(٣) الروم: ٢١.

(٤) نفس الآية.

(٥) وهو الأقرع بن حابس.

الله ﷺ له مقام عظيم، فلا يحسن به أن يستقبل طفلاً في مجلس، ويتعامل معه بهذه الحالة العاطفية.

ثم أبدى الاستنكار، فقال: ((**إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم، فقال رسول الله ﷺ: منْ لا يَرحَمُ لا يُرحَمُ**))[١].

فالنبي ﷺ يرى أن هذا جزء من شخصية الإنسان التكاملية، بحيث يكون عنده هذا النوع من الرحمة بالأطفال، والتعامل معهم بهذه الطريقة.

وهناك شواهد كثيرة يمكن أن تعبر عن جانب التكامل في العلاقة العاطفية بين الزهراء عليها السلام، وأبيها رسول الله ﷺ، بحيث كانت هذه العاطفة بدرجة عالية جداً، ومن الطرفين، وقد عبرت الزهراء عليها السلام عنها بطريقتها الخاصة. حيث أشارت بعض النصوص التي وردت في قضية الزهراء عليها السلام، أنه ((**لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة بكى حتى بلت دموعه لحيته، فقيل له: يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: أبكي لذريتي**[٢] **كأني بفاطمة وقد ظلمت بعدي، وهي تنادي يا أبتاه فلا يعينها أحد من أمتي، فلما سمعت فاطمة عليها السلام ذلك بكت**[٣] **فقال رسول الله ﷺ: لا تبكي يا بنية، فقالت: لست أبكي لما يصنع بي من بعدك، ولكني أبكي لفراقك يا رسول الله فقال لها ﷺ: أبشري يا بنتَ محمد بسرعة اللحاق**

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣: ١٨٩، ومسند احمد:٢: ٢٤١.

(٢) وهذا الموقف يعبر عن عاطفة رسول الله ﷺ فالرسول ﷺ على عظمته يبكي حتى تبتل لحيته بالدموع..(**المؤلف**).

(٣) وهنا يتبادر إلى الذهن أن بكاءها باعتبار ما سوف يصيبها، بحيث تنادي في النـــاس ولا من مغيث أو مجيب..(**المؤلف**).

بي، فأنت أول من يلحق بي من أهل بيتي))[١].

وفي نص آخر: **((فبكت فاطمة، فقال لها: لا تبكي فإنك لا تمكثين بعدي إلاّ اثنين وسبعين يوماً ونصف يوم حتى تلحقي بي، ولا تلحقي بي حتى تتحفي بثمار الجنة. فضحكت فاطمة))**[٢].

إذن، فالجانب العاطفي مهم جداً في شخصية فاطمة عليها السلام. وهو مهم أيضاً في بعده التربوي، وقد أكد أهل البيت عليهم السلام عليه، فقد ورد عنهم عليهم السلام: **((من ذَكَرَنا أو ذُكِرْنا عندَه فخرج من عينه دمع مثل جناح بعوضة غفر الله له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر))**[٣] إلى غير ذلك مما ورد في الروايات.

وهذا يدخل في باب تربية شيعتهم على سجايا العطف والرحمة والعاطفة؛ لأن الإنسان لكي يتكامل لابد أن يكون متصفاً بالجانب الروحي والعاطفي.

ولذلك إذا قيس أتباع أهل البيت عليهم السلام بغيرهم، نجد أن أكثر جماعة في هذا العالم تتصف بالرحمة والتعاطف مع معاناة المظلومين من الظلم والاضطهاد، هي جماعة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، وذلك لوجود هذه التربية الروحية والمعنوية التي شهدها تأريخ أهل البيت عليهم السلام.

الهدف من البكاء

إن للزهراء عليها السلام أهدافا رئيسية وأساسية من الحزن والبكاء. وقد يتمكن الباحث أن يجد أهدافاً أخرى فيضيفها إلى تلك. منها:

---

(١) أمالي الطوسي: ١٨٨: ح٣١٦.

(٢) بحار الأنوار: ٤٣: ١٥٦: ح٣.

(٣) بحار الأنوار: ٤٤: ٢٧٨: ح٣.

الهدف الأول: إبراز المصيبة

أرادت الزهراء عليها السلام إبراز المصيبة العظمى التي شهدتها البشرية بفقد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله، وهناك نصوص تؤكد على ذلك، ومن جملتها رسالة الإمام الحسن عليه السلام إلى الإمام الحسين عليه السلام يخبره بشهادة أمير المؤمنين عليه السلام، ويطلب منه الرجوع إلى الكوفة، بعد خروجه منها مع طلائع الجيش الذي بعثه الإمام علي عليه السلام لمنازلة معاوية مرة أخرى بعد حرب صفين، فنعى الحسن إلى الحسين عليهما السلام وهو بالمدائن، فلما قرأ الكتاب، قال: ((**يا لها من مصيبة! ما أعظمها! مع أن رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بي فانه لن يصاب بمصيبة أعظم منها، وصدق صلى الله عليه وآله**))[1].

إذن، فالمصاب بالنبي صلى الله عليه وآله يعتبر أعظم مصيبة[2]، وهذا من الأهداف المهمة التي استهدفتها الزهراء عليها السلام بحزنها للتعبير عن تلك المصيبة، وله بعد يرتبط بمظلومية النبي صلى الله عليه وآله، وما تحمل من معاناة من أجل تغيير

---

(١) الكافي ٣: ٢٢٠، ح٣.

(٢) لكننا لا نلحظ الاهتمام البالغ المناسب من الناس بهذا المصاب، وعندما نقيم العزاء بمصاب أهل بيته، ونتحدث عن مصاب علي والزهراء وأهل البيت عليهم السلام فلابد أن نتحدث عن آلام رسول الله صلى الله عليه وآله ومعاناته وعذابه، وما نزل به من الظلم في حياته.

فقد روي عنه أنه قال: ((ما أوذي نبي كما أوذيت))، وقد تحدث القرآن عن أذاه أيضا فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

وعندما نتصور ما تعرض له رسول الله صلى الله عليه وآله، تأخذني العبرة، وعدم السيطرة على العواطف..(المؤلف).

المجتمعات الإنسانية، وهذه آلام ومعاناة أشد من الآلام الجسدية التي يتعرض لها الإنسان[١].

وهناك جانب آخر لا يتم التركيز عليه في أحاديثها عليها السلام، وهو: إن فقد النبي صلى الله عليه وآله أدى إلى انقطاع الوحي الإلهي والرسالات الإلهية، ومرت الإنسانية بمرحلة جديدة، وهي: مرحلة الإمامة، حيث يتحمل الإنسان أعباء هذه المرحلة حتى ظهور الحجة عجل الله فرجه[٢].

والزهراء عليها السلام تشير إلى ذلك، بما كان منها من مظاهر الحزن، فقد روي - كما تقدم - عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: ((**البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف، وفاطمة بنت محمد، وعلي بن الحسين... أما فاطمة فبكت على رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تأذى بها أهل المدينة، فقالوا لها: قد آذيتنا بكثرة بكائك، فكانت تخرج إلى المقابر، مقابر الشهداء، فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف**))[٣].

---

(١) ولا أقول هذا الكلام من باب الحديث النظري، وإنما هناك تجربة مرت بي شخصياً، ولا أدعي أني تعرضت إلى آلام جسدية، كما تعرض لذلك بعض المؤمنين والمجاهدين في سجون العراق، ولكن يمكن أن أقول: إني تعرضت إلى آلام، وشاهدت وسمعت عن ذلك..(المؤلف).

(٢) وأنا أعتقد أن ما تحملته البشرية بصورة عامة بعد النبي صلى الله عليه وآله، وما تحمله أئمة أهل البيت عليهم السلام بصورة خاصة هو أعظم بكثير مما تحملته البشرية في كل تأريخها، فهذه الفترة الزمنية، وهي: عبارة عن أربعة عشر قرناً عندما نقيسها مع مئات القرون من تأريخ البشرية، يمكن أن نقول: إنها أعظم بكثير من تلك الفترات، من حيث الآلام والمحن، وكل ذلك بسبب انقطاع الوحي الإلهي ووصول الإنسان إلى هذه المرحلة من تحمل المسؤلية، وهذه من القضايا المهمة التي لابد أن نهتم بها..(المؤلف).

(٣) الخصال: ٢٧٢ - ٢٧٣:ح١٥.

وقد ورد في التعبير عن هذه الحالة التي يذكرها المؤرخون، ما ذكره سعد بن عبد الله الهمداني، عن علي عليه السلام قال: ((**غسّلت النبي ﷺ في قميصه، فكانت فاطمة تقول: أرني القميص، فإذا شممْتهُ غُشي عليها، فلما رأيت ذلك غيبته**))[1].

أو ما ورد في القصة المعروفة من أنها عليها السلام طلبت من بلال أن يؤذن حتى تسمع صوت الأذان الذي كان في زمن رسول الله ﷺ، فأخذ في الأذان، فعندما قال: الله أكبر الله أكبر، ذكرت أباها فلم تتمالك نفسها من البكاء، فلما بلغ قوله: أشهد أن محمداً رسول الله، شهقت فاطمة عليها السلام وسقطت على الأرض وغشي عليها.

فقال الناس لبلال: أمسك يا بلال فقد فارقت ابنة رسول الله ﷺ الدنيا، وظنوا أنها قد ماتت. فقطع أذانه ولم يتمه، فأفاقت عليها السلام وسألته أن يتم الأذان، فلم يفعل، وقال لها: ((**يا سيدة النسوان، إني أخشى عليك مما تنزلينه بنفسك إذا سمعت الأذان، فأعفته من ذلك**))[2].

هذا العمل المتوالي في مقام التعبير عن هذه الحالة يُشعر أن هناك هدفاً تسعى إليه فاطمة عليها السلام في هذه الفترة، وهو إلفات نظر الناس إلى المصيبة برسول الله ﷺ.

الهدف الثاني: التذكير بالمظلومية

أرادت الزهراء عليها السلام تذكير المسلمين وتنبيههم للظلم الذي وقع

---

(١) بحار الأنوار: ٤٣: ١٥٧:ح٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ١: ٢٩٧ - ٢٩٨:ح٩٠٧.

عليها، والتجاوز على حقوقها، فالقضية ليست مجرد بكاء وألم، وإن كان هذا الألم على رسول الله صلى الله عليه وآله موجوداً في نفس الزهراء عليها السلام، وهذا النوع من الاستمرار بالبكاء ليلاً ونهاراً يشبه موقف الإمام زين العابدين عليه السلام، الذي كان لا يُقدّم له طعام وشراب إلا ويبكي، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: ((... **وأما علي بن الحسين عليه السلام فبكى على الحسين عليه السلام عشرين سنة (أو أربعين سنة) - والترديد من الراوي - وما وضع بين يديه طعام إلاّ بكى، حتى قال له مولى له: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين. قال: إنّما أشكو بثّي وحُزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، إنّي لم أذكر مصرع بني فاطمة إلاّ خنقتني لذلك عَبْرة**))[1]، وهذا الموقف يشبه موقف الزهراء عليها السلام في بكائها على رسول الله صلى الله عليه وآله. فالزهراء عليها السلام لها أساليب متعددة في تثبيت حقها وبيان مظلوميتها، فهي مرة تدور على بيوت المهاجرين والأنصار، تطرق بيوتهم تستنجد وتستغيث بهم، ومرة أخرى موقفها المتشدد من الشيخين حينما دخلا عليها وطلبا رضاها والاعتذار إليها مما ألحقاه بها من أذى وضرر، فقد طلبا ذلك من علي عليه السلام، فوافق وأدخلهما على سيدة النساء عليها السلام بعد أن أخذ الإذن منها، والزهراء عليها السلام تقبل مجيئهم؛ لأنها تريد أن تحقق قضية، فهؤلاء لو بقوا في أماكنهم، ولا يأتون للزهراء عليها السلام، لم يكن من الممكن إثبات الظلم الذي وقع عليها بمثل هذا الوضوح ألان.

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٠٤:ح٢٢١، وعنه بحار الأنوار: ٤٦: ١٠٩:ح٢.

وهناك أعلنت بشكل واضح عن عدم رضاها، وقالت كلامها المعروف: ((**هل سمعتما رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخطها من سخطي؟ - وتكلمت بهذا الكلام بعد أن إستشهدتهما على هذه الحقيقة فشهدا - ثم قالت: أشهد الله وملائكته أنكما قد أسخطتماني**))[1]. والبخاري الذي ينتقي الأحاديث، ويدقق فيها، ويجتهد في إخفاء ما من شأنه إظهار حق أهل البيت عليهم السلام ومظلوميتهم، لا يمكنه أن يتجاوز هذه الحقيقة، وهي: إن القوم أغضبوا الزهراء عليها السلام[2]، ويروي في موضوع غضب الزهراء عليها السلام، إن من أغضبها أغضب رسول الله ﷺ[3]، وهذا الموقف من البخاري يدلل على أن هذه القضية ثابتة تأريخياً، ولا يمكنه تجاوزها.

مع أن القرآن الكريم سنّ خُلُقاً للمؤمن، وهو: أن يعفو عن أخيه ويصفح، والصفح والعفو من الصفات الطيبة والأخلاق العالية، فكيف إذا جاءا قاصدين البيت معتذرين عما بدر منهما؟! فلماذا لا تقبل الزهراء عليها السلام منهما؟ أن هذا يثير الاستغراب.

ومن ناحية أُخرى لماذا يهتم القوم باسترضاء فاطمة عليها السلام، بعد ذلك العدوان والتجاوز، بحيث وصل الحد أنهم يريدون أن يحرقوا البيت، فيأتون الآن ويصرون على علي عليه السلام ويتوسلون أن ترضى عنهم

---

(١) الصراط المستقيم للبياضي العاملي: ٢: ٢٩٣، والإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١: ١٣ - ١٤.

(٢) البخاري: ٦: ٢٤٧٤، ((... **فهجرته فاطمة، فلم تكلمه حتى ماتت**)).

(٣) جاء في البخاري: ٣: ١٣٦٠، عن المسور بن مخرمة، أن رسول الله ﷺ قال: ((**فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني**)).

فاطمة عليها السلام؟ فلماذا هذا الإصرار والإلحاح والتنازل من قبلهم بعد ذلك العمل[1]؟

وهكذا وصية دفنها سراً. فقد ألحت على علي عليه السلام أن يدفنها سرا.

وهكذا في موضوع البكاء، فالزهراء عليها السلام كانت تريد تذكير المسلمين وتنبيههم للظلم والمحنة والتجاوز على الحقوق. وإذا حسبناها، فإننا نجد أنّ وراءها هدفاً واحداً واضحاً، وهو: تثبيت حقيقة أن هناك ولاية، وهي جزء من الرسالة، وهذه القضية لا يمكن السكوت عنها، لكن كما نعرف عن أهل البيت عليهم السلام عندما يقولون: لا يمكن السكوت، فليس معنى ذلك أن يفرطوا بكل المصالح الإسلامية، فهم لا يسكتون على الظلم والباطل، وفي الوقت نفسه ينظرون بالعين الأخرى إلى المصالح الإسلامية الكبرى، ويحافظون على مصلحة الكيان الإسلامي.

هذه هي ميزة أهل البيت عليهم السلام، فهم على استعداد للتضحية والفداء والبذل، وتحمل كل النتائج المترتبة على ذلك، من أجل أن يحافظوا على المصالح الكبرى للإسلام، التي تقتضيها مصلحة الرسالة الإسلامية والوجود الإسلامي.

إثارة

وهنا يُثار سؤال مهم، وهو: ما الداعي للحديث عن البيعة؟ وقد أصبحت قضية تاريخية مرتبطة بذلك العصر، ولا ينبغي إثارتها، باعتبار

---

(١) هذه الأسئلة مهمة جداً، وقد تثار هنا وهناك، كما أثيرت بالفعل، وقد تخطر على بال الإنسان العادي عندما يسمع هذه الأحداث، فيستغربها في نفسه، غاية الأمر أنه قد لا يجرؤ على أن يطرحها، ويقول: لابد أن هناك شيئاً لا نعرفه..(المؤلف).

ما يمر به المسلمون من ظروف تقتضي وحدة كلمتهم وموقفهم، وضرورة الاصطفاف في خندق واحد مقابل أعدائهم، الذين يتربصون بهم الدوائر[١].

نحن نعتقد أن البيعة قضية مهمة جداً، ويجب أن نهتم بها، ونتحدث عنها، ولكن في إطار وحدة المسلمين، فنتحدث عنها بالطريقة التي تحدث بها أهل البيت عليهم السلام، أي: نتحدث عنها عن طريق المنطق والعلم والأهداف الصالحة، مع المحافظة على كل القضايا الأخرى التي لابد من المحافظة عليها[٢].

---

(١) لقد رأيت أن أشخاصاً متعددين يثيرونه، ولكن البعض لديه جرأة فيثيره بشكل علني، والبعض الآخر يتحدث عنه بشكل همس وهمهمة..(المؤلف).

(٢) نحن دعاة وحدة الصف الإسلامي، ونهتم بهذا، وعلى استعداد لأن نضحي من أجل هذه الوحدة، بل إننا ضحينا من أجلها، ولقد ضحى الإمام الحكيم رحمه الله من أجل الوحدة الإسلامية، حيث وقف مع الإخوة الأكراد في شمال العراق، مع أنهم لا يرتبطون معه ارتباطاً مذهبياً ولا سياسياً.

نعم، هناك جماعة كبيرة من الإخوة الأكراد الفيلية الذين يرتبطون بالإمام الحكيم ارتباطاً مذهبياً، ولكن ما جرى في العراق لم يكن قضية هؤلاء، وإنما كانت أشمل وأعم.

لقد كان دفاع الإمام الحكيم رحمه الله عن هؤلاء ينطلق من هذا الموقف الوحدوي، وما تعرض له كان بسبب هذا الموقف، وهكذا موقفه من قضية فلسطين وتضحياته في هذا الجانب.

وهكذا ما جرى لكثير من علمائنا وأبرارنا وشهدائنا الذين ضحوا في هذا السبيل، بحيث جعلتهم هذه القضية السياسية يندفعون للدفاع عن الإسلام. فالإمام البروجردي وغيره من علمائنا كانت لهم مواقف وحدوية.

نحن نعتقد بالوحدة، ونؤمن بها، وندافع عنها، وللتزم بها، وسوف نستمر - بإذن الله - في هذا الطريق ولا نتوقف عن هذا الأمر، ولكن في الوقت نفسه عندنا مسألة مهمة جداً، وهي قضية البيعة، فهي ليست مختصة بفرد (وهو الإمام علي عليه السلام) أو أفراد (وهم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام)، وإنما هي قضية الإمامة..(المؤلف).

نحن لدينا فهم للتأريخ الإنساني، ولتأريخ الرسالات الإسلامية، ولدينا رؤية للرسالة الخاتمة، واستمرارها وأدائها، وكيفية معالجتها للمشاكل التي تواجهها البشرية، وكل هذه القضايا مرتبطة بفكرة أساسية، هي: استمرار الرسالة من خلال الإمامة، لا من خلال الحكم الذي شهده التأريخ الإسلامي.

فإن الحكم الذي شهده التاريخ الإسلامي قد صنع ما صنع، فهل هو امتداد للرسالة؟ وهل يمثل الرسالة الكاملة المنقذة، التي يجب أن تحل مشكلات البشرية؟ وهل كانت الرسالة متمثلة بهذا الحكم الذي شهده التأريخ الإسلامي؟

هذه قضيه مهمة وأساسية، ولابد أن تُطرح من هذا البعد، وهو أن الخلل الذي حصل بعد رسول الله ﷺ كان له دور عظيم في انحراف الإسلام عن الجادة التي توصل البشرية إلى السعادة المطلقة، والعدل المطلق، وإلى الاستقرار والتكامل.

وعندما كان الإمام علي عليه السلام يُقاد إلى المسجد من أجل أن يبايع، كان سلمان الفارسي يسير خلفه، ويقول: ((**والله لو ولّوها علياً لأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم**))[1]، وليس ذلك لأن الإمام علياً عليه السلام صديقه أو إمامه، ويجب عليه أن يقول ذلك في حقه، وإنما القضية أكبر من كل ذلك، فهي قضية الإمامة التي جاءت الرسالات الإلهية من أجل تحقيق أهدافها وأغراضها، بحيث تحمّلَ كل الأنبياء، ومنهم رسول الله ﷺ الآلام من أجل هذه الأهداف.

ولقد ثبتت الزهراء عليها السلام هذا الأمر من أجل هذه القضية المهمة، التي

---

(١) بحار الأنوار: ٢٨: ٢٧٨، في الهامش، عن أنساب الأشراف: ١: ٥٩١.

أشارت لها في أحاديثها.

فلابد إذن، أن يكون الحديث عن البيعة في إطار الوحدة الإسلامية، وليس حديث التحامل والشتم والسب وتفريق الصفوف أو حديث الجاهلين، وإنما لا بد أن يكون الحديث حديث العلماء، والمنطق والعلم والبرهان والدليل والأهداف الصالحة، التي يسعى إليها الإنسان، وهذا هو حديث أهل البيت عليهم السلام.

ولابد أن يستمر هذا الحديث، ولكن بهذه الطريقة، وبهذا المنطق الصحيح، وبذلك نعتقد أن الزهراء عليها السلام يجب أن تبقى حية، ولكن بهذا المنطق، وبهذا الحديث، ولا يحسن بنا أن ننزل إلى مستويات أدنى من هذا المستوى.

الهدف الثالث: بيان مضمون الخلافة الإسلامية

الزهراء عليها السلام لم تتحدث عن البيعة فقط، وإنما تحدثت عن مضمون الخلافة الإسلامية، كما في خطبتها للنساء.

ففي أيام الزهراء عليها السلام الأخيرة وعندما اشتد بها الوجع، وأصبحت على أبواب الرحيل من هذه الدنيا، جاءت النساء تزورها، وتسأل عن حالها، فأخذت تتحدث عن حالها، ثم تحدثت عن الخلافة ومضمونها، فقالت: ((... **ويحهم أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة ومهبط الروح الأمين بالوحي المبين، الطبين[1] بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين[2]... وأيم الله لو تكافوا[3] عن زمام نبذه إليه**

---

(١) الطبين: العالمين.

(٢) أي أن علياً يمثل امتداداً للرسالة والنبوة، وامتداداً للوحي الإلهي..(المؤلف).

(٣) تكافوا: أي كفوا أيديهم عنه.

رسول الله ﷺ، لاعتلقه[١]، ثم لسار بهم سيراً سجحاً[٢]، لا يكلم خشاشه[٣]، ولا يتعتع[٤] راكبه، ولأوردهم منهلاً روياً صافياً فضفاضاً[٥] تطفح ضفتاه، ولاصدرهم بطاناً[٦]، قد تخيّر بهم الرّيُّ...))[٧].

---

(١) لاعتلقه: لأخذه بيده

(٢) السجح: السير السهل

(٣) الخشاش: ما يكون في انف البعير من الخشب.

(٤) لايتعتع: أي لا يكره ولا يقلق.

(٥) فضفاضاً: كثيراً

(٦) البطان: جمع بطين، وهو الريان.

(٧) دلائل الإمامة: ١٢٦.

وقفة عند بعض روايات العامة بشأن الزهراء عليها السلام

إستعراض الروايات

في هذا الفصل أشير إلى نموذج من الروايات الواردة بشأن الزهراء عليها السلام، ثم أحاول أن أتناول هذا الموضوع بصورته العامة، وأعالج موضوع هذا النموذج من الروايات بصورة خاصة.

أما النموذج من الروايات التي قد يستوحى منها بعض الأمور والمفاهيم، فهي كالتالي:

الرواية الأولى: ذكرها ابن شهر آشوب عن ابن عبد ربه الأندلسي في (العقد الفريد) - وهو من كتب علماء الجمهور - عن عبد الله بن الزبير، في خبر، عن معاوية بن أبي سفيان، قال: ((**دخل الحسن بن عليٍّ على جدِّه ﷺ وهو يتعثر بذيله، فأسرَّ إلى النبي ﷺ سراً، فرأيته وقد تغير لونه، ثم قام النبي ﷺ حتى أتى فاطمة، فأخذ بيدها فهزها إليه هزّاً قوياً، ثم قال: (يا فاطمة إياك وغضب عليٍّ، فإن الله يغضب لغضبه ويرضى لرضاه).**

ثم جاء علي عليه السلام، فأخذ النبي بيده ثم هزّها إليه هزّاً خفيفاً، قال: (يا أبا الحسن، إيّاك وغضب فاطمة، فإنّ الملائكة تغضب لغضبها وترضى لرضاها).

فقلت[1]: يا رسول الله مضيت مذعوراً، وقد رجعت مسروراً.

فقال: يا معاوية كيف لا أسر، وقد أصلحت بين اثنين، هما أكرم الخلق))[2].

---

(١) القائل هو: معاوية بن أبي سفيان راوي الحديث.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٣: ١١٤.

وهذه الرواية - كما نلاحظ - أنها تمدح فاطمة عليها السلام وتبين أن رضاها من رضا الملائكة، ورضا الملائكة من رضاها، وتمدح علياً، وتبين أن رضا الله من رضاه، وغضبه من غضبه، ثم تبين أكرم الخلق عند الله تعالى.

ويبدو وكأنها رواية لبيان مناقب فاطمة عليها السلام، كما هو مذكور في عنوان: باب مناقبها وبعض أحوالها.

وقال ابن بابويه: هذا غير معتمد؛ لأنهما منزّهان من أن يحتاجا أن يصلح بينهما رسول الله صلى الله عليه وآله[1].

الرواية الثانية: يرويها القطان، عن السكري، بسنده عن أبي هريرة، قال: **((صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله الفجر، ثم قام بوجه كئيب، وقمنا معه حتى صار إلى منزل فاطمة صلوات الله عليها، فأبصر علياً نائماً بين يدي الباب على الدقعاء[2]، فجلس النبي صلى الله عليه وآله، فجعل يمسح التراب عن ظهره، ويقول: (قم فداك أبي وأمي يا أبا تراب)** - وهذا مدحٌ عال جداً للإمام علي عليه السلام - **ثم أخذ بيده ودخلا منزل فاطمة، فمكثنا هنيئة، ثم سمعنا ضحكاً عالياً، ثم خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله بوجه مشرق، فقلنا: يا رسول الله دخلت بوجه كئيب، وخرجت بخلافه.**

فقال: كيف لا أفرح وقد أصلحت بين اثنين أحب أهل الأرض إليّ وإلى أهل السماء))[3].

الرواية الثالثة: يرويها القطان أيضاً، بسنده عن حبيب بن أبي ثابت،

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣: ١١٤.

(٢) الدقعاء: علمة التراب، وقيل: التراب الدقيق على وجه الأرض. لسان العرب: ٨ : ٨٩.

(٣) علل الشرائع:١: ١٥٥: ح١، وعنه البحار: ٤٢: ١٤٦: ح١.

((قال: كان بين علي وفاطمة عليها السلام كلام، فدخل رسول الله ﷺ وألقي له مثال[1] فاضطجع عليه، فجاءت فاطمة عليها السلام فاضطجعت من جانب، وجاء علي عليه السلام فاضطجع من جانب، فأخذ رسول الله ﷺ يده - أي يد عليّ - فوضعها على سرته، وأخذ بيد فاطمة ووضعها على سرته، فلم يزل حتى أصلح بينهما، ثم خرج.

فقيل: يا رسول الله، دخلت وأنت على حال، وخرجت ونحن نرى البشرى في وجهك؟

قال: ما يمنعني وقد أصلحت بين اثنين، أحب من على وجه الأرض إليّ))[2].

الرواية الرابعة: يرويها القطان - أيضاً - عن أبي ذر رضي الله عنه قال:((كنت أنا وجعفر بن أبي طالب مهاجرين إلى الحبشة، فأهديت لجعفر جارية قيمتها أربعة آلاف درهم، فلما قدمنا المدينة أهداها لعلي عليه السلام تخدمه، فجعلها علي عليه السلام في منزل فاطمة عليها السلام، فدخلت فاطمة عليها السلام يوماً فنظرت إلى رأس علي عليه السلام في حجر الجارية، فقالت: يا أبا الحسن، فعلتها؟

فقال: لا والله يا بنت محمد ﷺ، ما فعلت شيئاً، فما الذي تريدين؟

قالت: تأذن لي في المصير إلى منزل أبي رسول الله ﷺ؟

فقال لها: قد أذنت لك.

فتجلببت بجلبابها وتبرقعت ببرقعها وأرادت النبي ﷺ، فهبط جبرئيل عليه السلام، فقال: يا محمد، إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: إن هذه فاطمة أقبلت تشكو علياً، فلا تقبل منها في علي شيئاً.

---

(١) المثال: الفراش الذي ينام عليه.

(٢) علل الشرائع: ١: ١٥٦: ح٢، وعنه البحار: ٤٣: ١٤٦: ح٢. والطبقات الكبرى: ٨: ٢٦.

فدخلت فاطمة، فقال لها رسول الله ﷺ: جئت تشكين علياً؟

قالت: إي ورب الكعبة.

فقال لها: ارجعي إليه، فقولي له: رغم أنفي لرضاك.

فرجعت إلى علي عليه السلام، فقالت له: يا أبا الحسن رغم أنفي لرضاك، تقولها ثلاثاً.

فقال لها علي عليه السلام: شكوتيني إلى خليلي وحبيبي رسول الله ﷺ، واسوأتاه من رسول الله ﷺ، أشهد الله يا فاطمة أن الجارية حرة لوجه الله، وأن الأربعمائة درهم التي فضلت من عطائي صدقة على فقراء أهل المدينة.

ثم تلبس وانتعل وأراد النبي ﷺ، فهبط جبرئيل فقال: يا محمد، إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: قل لعلي: أعطيتك الجنة بعتقك الجارية في رضا فاطمة، والنار بالأربعمائة درهم التي تصدقت بها، فأدخل الجنة من شئت برحمتي، وأخرج من النار من شئت بعفوي.

فعندها قال علي عليه السلام: أنا قسيم الله بين الجنة والنار))[1].

الرواية الخامسة: لما انصرفت من عند أبي بكر أقبلت على أمير المؤمنين عليه السلام[2] فقالت له: ((يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجنين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل[3] فخانك ريش

---

(١) علل الشرائع: ١: ١٩٥ – ١٩٦: ح: ٢، باب العلة التي من أجلها صار علي بن أبي طالب قسيم الله بين الجنة والنار.

(٢) وذلك في انصرافها من أبي بكر عندما طالبت بالإرث وفدك، فمنعها أبو بكر، فرجعت إلى علي عليه السلام وأخذت تعاتبه عتاباً شديداً، على ما تذكره هذه الرواية.

(٣) قوادم الطير: مقادم ريشه، وهي عشرة، والاجدل: الصقر.

الأعزل[١]، هذا ابن أبي قحافة قد ابتزني نحلة أبي، وبلغة[٢] ابنيّ، والله لقد أجهد في ظلامتي، وألدّ في خصامي حتى منعتني القيلة[٣] نصرها، والمهاجرة وصلها، وغضت الجماعة دوني طرفها، فلا مانع ولا دافع، خرجت والله كاظمة، وعدت راغمة، ولا خيار لي، ليتني مت قبل ذلتي، وتوفيت دون منيتي، عذيري[٤] والله فيك حامياً، ومنك داعياً، ويلاي في كل شارق، مات العمد، ووهن العضد، شكواي إلى ربي، وعدواي إلى أبي، اللهم أنت أشد قوة.

فأجابها أمير المؤمنين عليه السلام: لا ويل لك، بل الويل لشانئك، نهنهي[٥] عن وجدك يا بنت الصفوة، وبقية النبوة، فوالله ما ونيت في ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعدّ لك خير مما قطع عنك، فاحتسبي.

فقالت: حسبي الله ونعم الوكيل))[٦].

الرواية السادسة: يرويها عدة من الأصحاب عن الباقر عليه السلام، مع اختلاف في الروايات، واتفاق في المعنى، أن النسوة قلن: ((يا بنت رسول الله ﷺ خطبك فلان وفلان فردّهم أبوك، وزوجك عائلاً!

فدخل رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله زوّجتني عائلاً؟!

---

(١) الأعزل من الطير: ما لا يقدر على الطيران.

(٢) ابتزني: سلبني، والبلغة: ما يتبلغ به من العيش.

(٣) الأنصار.

(٤) العذير: بمعنى العاذر، أي: الله قابل عذري، وعادياً، متجاوزاً.

(٥) أي: كفي عن حزنك وخففي من غضبك.

(٦) مناقب آل أبي طالب: ٢: ٥٠.

فهزّ رسول الله ﷺ بيده معصمها، وقال: ((لا يا فاطمة، ولكن زوجتك أقدمهم سلماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلماً، أما علمت يا فاطمة أنّه أخي في الدنيا والآخرة؟.

فضحكت وقالت: رضيت يا رسول الله))[1].

الرواية السابعة: وردت عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: شكت فاطمة عليها السلام إلى رسول الله ﷺ عليا، فقالت: ((يا رسول الله ما يدع شيئاً من رزقه إلا وزعه على المساكين.

فقال لها: (يا فاطمة أتسخطيني في أخي وابن عمي، إن سخطه سخطي، وإن سخطي لسخط الله).

فقالت: أعوذ بالله من سخط الله وسخط ورسوله))[2].

إلى غير ذلك من الروايات التي نراها في هذا المقام.

ظاهر الروايات

وهذه الروايات يجمعها - بصورة عامة - أمران:

الأمر الأول: إن ظاهرها المدح لعلي وللزهراء عليها السلام، وأغلب هذه الروايات فيها ثناء خاص على هاتين الشخصيتين.

الأمر الثاني: إن هذه الروايات تصرّح بوجود الخلاف والنزاع بين علي والزهراء عليها السلام، وأن الزهراء عليها السلام بصورة خاصة - وهو ما تكاد تجمع عليه هذه الروايات - إمرأة كالنساء، تتأثر بما تتأثر به النساء في القضايا العاطفية ذات الطابع الشخصي.

---

(١) مناقب آل أبي طالب: ٣: ١٢٢، وعنه البحار: ٤٣: ١٤٩: ح٥.

(٢) كشف الغمة: ٢: ١٠١، وعنه البحار: ٤٣: ١٤٢ - ١٤٣:ح٣٧.

وهذه الروايات تذكر - عادة - في باب المناقب، وتتلى في كثير من الأحيان على المنابر.

بحث رواني

وفي هذا الموضوع بحث واسع، أشير إلى ثلاث نقاط منه لنعرف كيفية معالجة هذا النوع من الروايات، التي وردت في الزهراء عليها السلام:

البحث التاريخي

النقطة الأولى: وهي نقطة عامة وشاملة لمختلف الروايات التي وردت في الزهراء عليها السلام، وهي ترتبط بالبحث التأريخي.

هناك سؤال عام يقول: ما الأسلوب والمنهج الذي يمكن أن نعالج به النصوص التاريخية التي نراها في الكتب التاريخية، وفي الروايات التي تتحدث عن تأريخ الإسلام، وتأريخ الأئمة عليهم السلام وغير ذلك من النصوص ذات العلاقة بهذا الموضوع؟

كما تقدم[1] أن البحث التأريخي فيه جانبان من الحديث نستعرضهما سريعا لأهميتهما:

أ) جانب يرتبط بمفردات الحوادث التاريخية، بحيث نأخذ الحوادث التاريخية حادثة حادثة، بخصوصياتها، وظروفها، وصيغتها المعينة، ونحاول أن نثبت هذه الحادثة أو ننفيها.

وهذه الطريقة يتبعها الفقهاء - أحياناً - عندما يريدون أن يثبتوا كلاماً أو موقفاً للنبي صلى الله عليه وآله أو المعصوم عليه السلام، وهو ما يعبر عنه أحياناً بـ(الإمضاء والسكوت) لأن الإمضاء له مداليل فقهية.

---

(١) راجع ص٩٩.

وهـذا المـنهج نطبقـهُ علـى التـأريخ، في محاولـة لإثبـات النـصوص التاريخية، عن طريق الرواة الموثقين والمعتمدين، الذين وردت في شـأنهم شهادات من علماء الرجال المعتمدين: بأن هؤلاء رواة ثقات.

وتقدم هذا الطريق قد يؤدي في معالجة الحوادث التاريخية إلى نفي التأريخ بأكمله، وتصبح النتيجة هي الشك والريب في كل الحوادث التاريخية التي بين أيدينا.

نعم، هناك جزء محدود جداً من التأريخ دوّنه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ودونه غيرهما من أصحاب المسانيد، بهذه الطريقة، بناءً على صحة هذه المسانيد عند أصحابها، وبمقدار ما ورد في هذه الكتب، وكذلك ما ورد في كتب علماء أتباع أهل البيت، من قبيل الكليني والصدوق قدس سرهما، وهي نصوص يتصف القليل منها بالصحة، إذا أردنا أن نتحدث عن الصحة بمعناها الاصطلاحي المتبع في النصوص الفقهية.

وعلى هذا الأساس، نجد أن المؤرخين - بصورة عامة - عندما يريدون أن يثبتوا حدثاً تأريخياً بصيغته التاريخية يعتمدون على الكتب التاريخية المعروفة، ويفترضون أن هذا القدر من ذكر الحدث في هذه الكتب يكفي لإثباتها على مستوى التأريخ المدون، وعلى هذا الأساس ينتهون إلى الالتزام بأن التأريخ لا يحتاج إلى ذلك البحث المعمق على مستوى السند، كما هو الحال في الفقه، الذي من خلاله يمكن إثبات الحكم الشرعي.

وبناءً على ذلك، يمكن أن نقول: إن المنهج العام المتبع في معرفة الحوادث التاريخية إذا طبق على الروايات التي وردت في الزهراء عليها السلام، نجد أن أكثر النصوص التي وردت في الثناء على الزهراء عليها السلام يمكن

إثباتها تأريخياً على مستوى البحث التأريخي المعتمد في المصادر التاريخية.

ب) وجانب يراد منه الوصول إلى نتائج في فهم التأريخ وتحولاته، مع قطع النظر عن التفاصيل الموجودة في هذا النص أو ذاك، وإنما يراد من هذا الجانب من البحث تحليل الظواهر والأحداث التاريخية العامة، والوصول إلى رؤية لفهم التأريخ، وفهم التحولات التاريخية، وترتيب الأحكام والآثار على هذه التحولات، وهذه طريقة أُخرى من البحث.

وهذه الطريقة هي طريقة علمية أيضاً، وهي من الطرق المعتمدة في الأبحاث الأُصولية والفقهية؛ لأنها تودي في كثير من الحالات إلى القناعة، التي يمكن أن نعبر عنها بالاطمئنان بوقوع الحدث التأريخي كظاهرة وحالة عامة، دون الجزم بالتفاصيل والجزئيات.

تأويل الروايات

النقطة الثانية: إذا طبقنا هذه الطريقة من البحث التأريخي على هذه الروايات، المتقدمة والتي يفهم منها وجود الخلاف بين علي والزهراء عليها السلام وأن الزهراء عليها السلام كانت امرأة عاطفية تتأثر بما تتأثر به النساء من القضايا العاطفية، فإنه تارة نؤول كل واحدة من هذه الروايات بطريقة معينة، ولا شك أن بعضها قابل للتأويل والتفسير، فيقال: إن هذه الرواية ظاهرها كذا، وأن المقصود منها كذا، لا كما يُتوهم أو يُفهم منها لأول وهلة.

فتأويل هذه النصوص وتفسيرها بحث وجيه، ولكنه خارج عن موضوع بحثنا الآن، وقد يتمكن بعض الباحثين من تقديم تفسير لهذا النص أو ذاك، بحيث لا يكون ظاهرُه هذا المعنى الإجمالي، وهو: إن الزهراء كانت عاطفية انفعالية، وأنها كانت تختلف مع علي عليه السلام، ولو

بعض الشؤون الخاصة ذات العلاقة بالقضايا المنزلية، أو بقضايا المشاعر الإنسانية والعاطفية، وهذا بحث معقول، ولكن له مجال آخر.

ولكن إذا افترضنا أن هذه النصوص بمجموعها تشير إلى هذا الأمر، فعندئذ يمكن أن نعالجها بمستوى البحث التأريخي التحليلي من النوع الثاني، ونرى أن هذه النصوص مردودة.

ومن هنا فيمكن:

أولاً: أن نرفض هذه النصوص - كما فعل ذلك بعض علمائنا، وقال: إن هذه النصوص غير معتمدة [١]- لوجود نصوص أُخرى أوثق منها، أو على أساس مخالفتها للنص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يوجد فيه شك ولا ريب، والذي يتحدث عن الزهراء وأنها طاهرة مطهرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾[٢].

ولا شك أن الزهراء عليها السلام أظهر مصداق لهذه الآية الكريمة[٣]، وفي تطبيقها الخارجي؛ لأن الزهراء عليها السلام كانت محور هذه الآية الكريمة، فهي أقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه وآله.

ومن ثَمَّ فهي أظهر مصداق لعنوان أهل البيت عليهم السلام؛ لأنها بنت رسول

---

(١) وهو الشيخ الصدوق رحمه الله.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

(٣) نعني بالمصداقية حسب الظهور، المصداقية حسب انطباق ظهور اللفظ، لا المصداقية حسب انطباق المواصفات عليها؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله - وهو أحد مصاديقها - أظهر منها بحسب المواصفات، وكذلك الإمام علي عليه السلام قد يكون أظهر منها أو مساوياً لها، والله العالم..(المؤلف).

الله ﷺ، وبعدها - من حيث الظهور اللفظي - يأتي الحسنان عليهما السلام، وبعدهما يأتي الإمام علي عليه السلام.

ولا شك أن هذه الطهارة تنزهها عن مثل هذه الخلافات أو الانفعالات، التي تشير إليها هذه الروايات - على فرض دلالتها - فهي أمور تتنافى - في نظرنا - مع الأشخاص الذين هم على مستوى من الكمالات الأخلاقية المعروفة لدى الصالحين، فكيف إذا كان هذا الشخص على مستوى التطهير الكامل، والعصمة الكاملة؟! إن مثل هذه التصرفات تكون مخلة بشخصية هذا الإنسان، فكيف بالزهراء عليها السلام التي تكون على هذا المستوى العالي من الطهارة، التي يتحدث عنها القرآن الكريم؟

إذن، هناك نص ثابت واضح لا ريب فيه - وهو النص القرآني - ينفي هذا المضمون الإجمالي، الذي يستفاد من هذه النصوص، على فرض استفادته منها.

ثانياً: أن نرفض هذه النصوص لمخالفتها للسنة النبوية القطعية، وذلك لوجود نصوص أوضح دلالة وأصح سنداً من هذه النصوص، تدل على قدسية الزهراء عليها السلام - والتي أشرت إلى بعضها - من قبيل النصوص التي دلت على أن الزهراء سيدة نساء أهل الجنة، وعندما يكون الحديث عن سيدة نساء أهل الجنة، فسوف يكون الفضل أكثر من الحديث عن سيدة نساء العالمين؛ لأن العالمين فيهم أهل النار وأهل الجنة، وأما الحديث الشريف فهو يتحدث عن أفضل نساء أهل الجنة، ويذكر أن الزهراء عليها السلام هي سيدة نساء أهل الجنة[1].

---

(١) روي عن الرسول ﷺ انه قال: ((فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)) صحيح البخاري: ٤: ١٨٣و٢٠٩و٢١٩ ومسند احمد: ٣: ١٥١.

وهذه النصوص رواها جميع علماء المسلمين في مختلف كتبهم المعروفة والمتداولة، سواء الجمهور أم الخاصة، رووا هذه النصوص التي تقدس الزهراء عليها السلام غير الآية الكريمة السابقة، وكذلك النصوص التي تقول: إن الله يغضب لغضبها ويرضى لرضاها[1].

وهنا لا يمكن أن نفترض أن رضا الله وغضبه هو رضا المشاعر والعواطف الإنسانية الانفعالية، التي يتعرض لها الإنسان بحسب ظروفه الاجتماعية، وإنما رضا الله مع الحق، وغضبه مع الحق.

وهذا يعني أن الزهراء عليها السلام معصومة في رضاها، فلابد أن يكون رضاها مع الحق دائماً؛ لأنه من رضا الله، وكذلك هي معصومة في غضبها، بمعنى أن غضبها يكون مع الحق دائماً.

ولذلك يُستدل على عصمة الزهراء عليها السلام، بهذه الرواية التي رواها المحدّثون ومنهم البخاري[2]، الذي هو أكثر الناس تشدداً وتعصباً في هذا الموضوع، وغير البخاري أيضاً، وتدل هذه الرواية في الوقت نفسه على الإدانة لمن غضبت عليه الزهراء، والمدح والثناء لمن رضيت عنه.

إذن، فهذه النصوص ترد مثل هذا المضمون الإجمالي على مستوى

---

(١) الاعتقادات: ١٠٥ أنظر: الإمامة والسياسة ١: ١٤. صحيح مسلم ٣: ١٣٨٠، برقم: ١٧٥٩. والترمذي ٤: ١٥٧ - ١٥٨، برقم: ٦٠٩. ومستدرك الحاكم ٣: ١٥٣، باختلاف يسير. كنز العمال ١٢: ١١١، برقم: ٣٤٢٣٨. ذخائر العقبى: ٣٩. مجمع الزوائد ٩: ٢٠٣.

(٢) روى البخاري عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: ((فاطمة بضعة منّي، فمن أغضبها أغضبني)) صحيح البخاري ٤: ٢١٠، و٢١٩.

البحث التأريخي[1].

الغرض السياسي وراء هذه الروايات

النقطة الثالثة: تفسير وجود هذه النصوص، وكيف وجدت بهذه السعة وتسللت إلى كتبنا؟

وهنا لا بد أن نرجع إلى أبحاث التأريخ، التي أشار إليها القرآن الكريم، سواء في زمن النبي صلى الله عليه وآله، أم في زمن الرسالات الإلهية، والتي دلت عليها الكثير من النصوص التاريخية، وهي ما يمكن أن نعبر عنه بـ((حركة النفاق في المجتمعات الدينية والرسالية)).

وحركة النفاق حركة خطرة جداً، بل هي أخطر حركة تهدد المجتمعات الرسالية من داخلها، ولابد أن ننتبه إليها بصورة دقيقة.

وعندما يرجع الباحث إلى البحوث الكلامية التي جرت طيلة القرون السابقة، فيما يتعلق بموضوع الأحداث التي جرت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يجد أن أول وأبرز قضية تطرح هي قضية الزهراء عليها السلام؛ لأنها القضية الواضحة التي لا يمكن إنكارها واحتواؤها، ولا يمكن التعتيم عليها؛ لأن الزهراء عليها السلام دخلت الصراع بصورة واضحة.

وحتى أولئك الذين يحاولون أن يفسروا تأخر بيعة علي عليه السلام - لأنه لاشك لدى جميع المسلمين بأنه امتنع عن البيعة منذ البداية - يقولون:

---

(١) خصوصاً أن بعض النصوص التي تشير إلى صدور بعض الانفعالات من الزهراء عليها السلام هي نفسها تضمنت الحديث عن أن رضاها رضا الله وغضبها غضب الله، وذلك يعني أنها تعارض وتنفي ما قد يستفيده البعض من صدور بعض الانفعالات غير المناسبة لمقامها عليها السلام كما في الرواية المتقدمة التي يرويها معاوية.

إن علياً عليه السلام بايع بعد وفاة الزهراء عليها السلام، وقد كان يريد أن يبايع من أول الأمر، لكنه كان يداري - بتأخره عن البيعة - عواطف الزهراء؛ لأنها كانت غاضبة على أبي بكر، وما كانت ترضى بهذه البيعة، فهو كان يداريها، وبقي في بيته إلى أن توفيت فذهب وبايع[1] فموقف الزهراء عليها السلام إذن لا يمكن إنكاره.

والزهراء عليها السلام هي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله التي قال فيها ما قال، ولذلك أصبح من المفروض أن توجه الأنظار إليها، بحيث تبرز وكأنها امرأة عادية، فاضلة مهذبة مكرّمة محبوبة عند رسول الله، لكن - على كل حال - هي امرأة شأنها شأن بقية النساء، فهي تتفاعل وتتفعل مع مختلف القضايا.

ويفترض فيها هؤلاء أن زوجها أُخذ منه الموقع والمنصب الخاص، فعليها أن تتأثر وتدافع، كما تدافع الزوجات عن أزواجهن، ولما حرمها رسول الله من الإرث - كما يدّعون - فهي لابد أن تنفعل؛ لأن المال شيء مهم لديها، ومن ثم تأتي لتطالب به.

ولما سألت أمير المؤمنين عن جلوسه عن نصرتها قال لها:((... **فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون**)) ولما لفت نظرها إلى ذلك، قالت: حسبي الله ونعم الوكيل، وانتهى الأمر عند هذا الحد.

هكذا يحاول هؤلاء إبراز الزهراء عليها السلام كشخصية فاضلة محترمة مكرمة ومقدسة عند رسول الله، لكن - في الوقت نفسه - لها عواطفها ومواقفها وانفعالاتها ومشاعرها، وهي عواطف ومشاعر إنسانية عادية، يمكن أن تصدر من أي إنسان، حتى لو كان على مستوى من الفضل

---

(١) تأريخ الطبري: ٢: ٤٤٥ ـ ٤٤٨، حديث السقيفة.

والمعرفة.

هذا النوع من التوجيه الخاص للطعن بالزهراء عليها السلام، ومحاولة احتواء موقفها الخاص، يفرض أن يأتي معاوية بن أبي سفيان - المعروف بمواقفه تجاه الإمام علي عليه السلام - فيذكر في حديثه علياً بهذا الثناء، ويذكر الزهراء كذلك، يحقق غرضاً سياسياً وهو: أن يظهر الزهراء بأنها امرأة عادية، يمكن أن يقع بينها وبين علي عليه السلام مشاكل زوجية وخلافات عائلية، فتغضب على علي عليه السلام، وعلي يغضب عليها، فإذا كانت يمكن أن تغضب على علي، فأي مانع من أن تغضب على عمر وأبي بكر وأي واحد من الصحابة؟

ثم ما هو الضرر في ذلك؟ فهي امرأة تفعل بمثل هذه الأحداث، فلا ضير بمدح الإمام علي ما دام الهدف السياسي هو المهم، ولا مانع عند معاوية بأن يصبح علي عليه السلام أكرم الخلق عند الله؛ لأن المهم لديه هو الهدف السياسي.

ومن أجل تحقيق أهداف سياسية يصل الأمر بهؤلاء المنافقين - أحياناً - أن يذكروا أموراً على خلاف عقائدهم، ويتبنوها وتصبح مهمة جداً لديهم، كل ذلك ليحققوا الغرض السياسي الذي يسعون إليه.

وعندما نلاحظ بعض هذه الروايات، نرى هذا النوع من الأغراض السياسية وراءها، من أجل إظهار الزهراء عليها السلام بهذه الصورة، حتى ولو كان فيها مدح وثناء للزهراء، بل مدح وثناء لعلي، من أجل أن تحقيق الهدف؛ لأنه عندما تمدح الزهراء لا تبقى شبهة حول الرواية.

وهذا النوع من البحث التاريخي من المهم جدا أن تخضع له الكثير من نصوصنا، وعندئذ يمكن أن نجد الكثير من النتائج التي توضح الحركة التاريخية التي جرت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، كما أنه يمكن تطبيق هذا النوع من التحليل على ظروفنا المعاصرة والتحويلات التي تحدث في تأريخنا الحاضر والمستقبل.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث الشريفة والروايات

فهـــرس المصـــادر

فهرس الآيات القرآنية

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ...﴾ ٥٨

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾ ٥٢

﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً...﴾ ٥٩

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ ١٤١

﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي...﴾ ١٤١

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ...﴾ ١٥٣

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ...﴾ ١٦

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ...﴾ ٢١

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ...﴾ ٢١

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً...﴾ ٧٢

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ...﴾ ١٣٩

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ...﴾ ٩٦

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ...﴾ ١٦٠

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً...﴾ ١٧

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ...﴾ ٣٥

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾ ١٢٩-١٤٠

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ...﴾ ٤٩

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...﴾ ١٦-١٤٥

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ ١٥

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ...﴾ ١٥-١٨٢-٢٥-١١٥-١١٦

﴿تعالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ...﴾ ١٥-١١٦
﴿طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى...﴾ ٦٣
﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ...﴾ ١٥٧
﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ...﴾ ١١٥
﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ...﴾ ٦٢
﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ...﴾ ٢١
﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا...﴾ ١٥-١١٦-١٤٣
﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي...﴾ ١٣٠
﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ...﴾ ٣٤
﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ...﴾ ١٥٦-١٥٧
﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ...﴾ ٣٠
﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى...﴾ ١٧
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا...﴾ ٢١
﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ ١٥٧
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي...﴾ ١١
﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ ٣٠
﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...﴾ ١٥٧
﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ...﴾ ٧٨
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ...﴾ ٢٢
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا...﴾ ٨٧
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ...﴾ ١١
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ...﴾ ٤٨

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...﴾ ٦٠
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ...﴾ ١٥٧
﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...﴾ ٥٥-١٣٧-١٦٠
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ ٦٠-١٣٧
﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا...﴾ ١٤٠
﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ...﴾ ٧٨
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾ ٤٧-٦٢-٦٦-٧٦

فهرس الأحاديث الشريفة والروايات

((اتقوا الله، واصبروا، فانه من لم يصبر...)) ١٥٤

((أخبر الله نبيه بما يلقى أهل بيت محمد ﷺ...)) ١٦

((إذا بلغكم عن رجل حسن حال فانظروا...)) ٧٨

((إذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديه...)) ٨٠

((ارتد الناس بعد النبي...)) ٥٢

((اعلم الناس بحلال الله وحرامه وضروب أحكامه...)) ٧٩

((أعلمكم علي...)) ٤١

((أقضاكم علي...)) ٤١

((البكاؤون خمسة: آدم، ويعقوب، ويوسف...)) ١٥٣-١٦١

((الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه...)) ٥٩

((المؤمن أعظم حرمة من الكعبة...)) ١١٨

((الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهن...)) ٧٦

((إن أبا بكر تفقد قوماً تخلفوا عن بيعته...)) ٩٨

((إن أصبت بمصيبة في نفسك أو في مالك...)) ١٥٥

((إنّ الحكم بن العاص، عم عثمان بن عفان...)) ٥٦

((إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ...)) ٦٤

((إن الصبر لجميل إلا عنك...)) ١٥٥

((إن رسول الله قال: لا نورث ما تركنا صدقة...)) ١٠٤

((إن عليا وصيي وخليفتي...)) ٣٥

((أنا مدينة العلم...)) ٤١

((أنت مني بمنزلة هارون من موسى...)) ٦٧

((أنت وصيّي وخليفتي من بعدي...)) ٦٥

((إنما يداق الله العباد في الحساب...)) ٨١
((إني تاركٌ - أو مخلّفٌ - فيكم الثّقلين...)) ١٥-٢٦
((أيها الناس، إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم...)) ٧٨
((أيها بني قيلة أأهضم تراث أبي وانتم بمرأن مني...)) ٩٥
((بايع ودع عنك هذه الأباطيل فقال له...)) ١١٠
((بخ بخ لك يا بن أبي طالب...)) ٤٧
((بلى كانت في أيدينا فدك من كل...)) ١٠٢
((بلى كانت في أيدينا فدك...)) ٧٧
((بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة...)) ٧٦
((تجلسون وتتحدثون، قال: قلت جعلت فداك...)) ١٣٣
((ثم لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال:...)) ٦٤
((ثم يوم الخميس وما يوم الخميس، ثم جعل...)) ٦٤
((ثم يوم الخميس، وما يوم الخميس، اشتد برسول...)) ٦٤
((خذ فدكاً حتى أردها إليك فيأبى حتى...)) ١٠٧
((خلف رسول الله ﷺ علياً في غزوة تبوك، فقال:...)) ٦٥
((خلفت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما...)) ٢٦-٢٧
((دخل الحسن بن عليّ على جدّه ﷺ وهو يتعثر...)) ١٧٣
((شهدت رسول الله ﷺ ثمانية أشهر، إذاً خرج...)) ١١٥
((صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر...)) ١٧٤
((علمني رسول الله ﷺ ألف باب...)) ٤١
((عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ...)) ٦٤
((غسّلت النبي ﷺ في قميصه...)) ١٥٣- ١٦٢
((فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني...)) ١٦٤

((فاطمة بضعة مني فمن...)) ٢٩-٣٢-١٨٤
((فاطمة سيدة نساء أهل الجنة...)) ١٨٣
((فبكت فاطمة، فقال لها:...)) ١٥٩
((فشحت عليها نفوس قوم وسخت...)) ١٠٣
((فغضبت فاطمة بنت رسول الله فهجرت أبا بك...)) ٩٢
((فقلت: يا أبا حنظلة يعني أبا سفيان، فقال: أبو الفضل...)) ٥٣
((فليت ابن أبي طالب مات قبل يومه...)) ١٢٠
((فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة...)) ٩٦
((فهجرته فاطمة، فلم تكلمه...)) ١٦٤
((قال رسول الله ﷺ: لا تصلح الإمامة إلا لرجل...)) ٧٩
((قال: كان بين علي وفاطمة عليها كلام...)) ١٧٥
((قلت له ما الجزع؟ قال: أشد...)) ١٥٥
((قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا...)) ٧٢
((كتاب الله حبل ممدود من...)) ١٥-٢٦
((كل الجزع والبكاء مكروه سوى...)) ١٥٥
((كنت أنا وجعفر بن أبي طالب مهاجرين...)) ١٧٥
((لا أبقاني الله لمعضلة...)) ٤١
((لا يا فاطمة، ولكن زوجتك أقدمهم سلماً...)) ١٧٨
((لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم...)) ٨٧
((لقد كثرت عليّ الكذّابة وستكثر...)) ١١٤
((لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة...)) ١٥٨
((لما رجع رسول الله ﷺ قافلا من تبوك إلى...)) ٦٧
((ما العمرة تريدان وإنما...)) ٦٢

((ما أُوذي نبي كما أوذيت...)) ١٦٠
((ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً...)) ٣٢
((من ذَكَرَنا أو ذُكِرْنا عنده...)) ١٥٩
((نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول...)) ١١٧
((هل سمعتما رسول الله ﷺ يقول: رضا فاطمة...)) ١٦٤
((هلموا أكتب لكم كتاباً...)) ٦٦
((والذي كرم محمدا بالنبوة يابن صهاك لو...)) ١٢٢
((والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر...)) ٦٣-٧٢
((والله لو ولُوها علياً لأكلوا من...)) ١٦٧
((وامّا ابنتي فاطمة، فأنها سيدة نساء العالمين...)) ٣٢
((وأما علي بن الحسين عليه السلام فبكى...)) ١٦٣
((ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار...)) ١١٤
((ووالله لأسلّمن ما سلمت أمور المسلمين...)) ٧٦
((ويحهم أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة...)) ١٦٨
((يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة...)) ١٧٦
((يا ابن عباس أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمد؟...)) ٦٨
((يا أشعث إن تحزن على ابنك...)) ١٥٤
((يا بنت رسول الله ﷺ خطبك فلان وفلان...)) ١٧٧
((يا سيدة النسوان، إني أخشى عليك...)) ١٦٢
((يا لها من مصيبة! ما أعظمها!...)) ١٦٠
((يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير...)) ١٤٩

المصـــادر

- القرآن الكريم.
- مسند أحمد: أحمد بن حنبل، نشر دار صادر، بيروت.
- مدينة المعاجز: السيد هاشم البحراني، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية، ط الأولى.
- كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين: العلامة الحلي ﷺ، ط الأولى.
- بحار الأنوار: العلامة محمد باقر المجلسي، نشر مؤسسة الوفاء بيروت، ط الثانية المصححة.
- الكافي: ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني، نشر مؤسسة دار الكتاب ـ قم ـ ط الثانية.
- مقاتل الطالبين: أبو الفرج الأصفهاني، نشر مؤسسة دار الكتاب ـ قم ـ ط الثالثة.
- تفسير القمي: أبو الحسن علي بن إبراهيم القمي، نشر مؤسسة دار الكتاب ـ قم ـ ط الثالثة.
- كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق، نشر مؤسسة النشر الإسلامية التابعة لجماعة المدرسين بقم ط محرم الحرام ١٤٠٥ .
- من لا يحضره الفقيه: الشيخ الصدوق، نشر جامعة المدرسين ١٤٠٤هـ، ط الثالثة.
- سيرة النبي: محمد بن إسحاق المطلبي، نشر مكتبة محمد علي صبيح وأولاده.
- إعلام الورى بأعلام الهدى: الشيخ الطبرسي، نشر مؤسسة آل البيت ﷺ لأحياء التراث قم المشرفة . ط الأولى.
- تحف العقول عن آل الرسول: ابن شعبه الحراني، نشر مؤسسة النشر الإسلامية لجماعة المدرسين، ط الثانية.